روايات عالمية للجيب

44

المؤسسة العربية الحديثة

تأليف : أوسكار وايلد
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق



المؤلف



هذا لقاؤنا الثانى مع أديب عظيم هو (أوسكار وايلد) .. وكنا قد قابلناه فى الكتيب رقم ١٨ مع قصته الشهيرة (صورة دوريان جراى)، وعرفنا عنه بعض الحقائق .. من جديد نكرر هنا ماقلناه لمن جاءوا متأخرين :

أديب اليوم عاش حياة صاخبة وأثار الكثير من الجدل، فلايمكن الكلام عنه إلا فى كتاب كامل، لقد ولد فى (دبلن) عام ١٨٥٤ لأب طبيب عيون، ولأم أديبة ثائرة من أجل قضية إيرلندا ..

تخرج الفتى فى جامعة أوكسفورد، بعدما لفت الأنظار إلى موهبته كشاعر وأديب له روح مرحة .. كما اشتهر بأزيائه الثورية الغريبة التى لاينساها المرء بسهولة،

وإن كنت تشعر بأنه يقولها أحيانًا لمجرد التميز حتى إن لم يؤمن بها تمامًا ..

حتى ثيابه كانت غريبة هي نوع من الاستفزاز للتقاليد والأنماط السائدة ..

في العام ١٨٨٧ كتب قصته (شبح كانترفيل) وهي من أشهر قصصه وأنجحها .. للمرة الأولى نجد القصر مسكونًا بشبح خائف مذعور من البشر الذين هم أكثر شناعة وقسوة من أي شبح يمكن تصوره ..

بعد هذا بعام قدم مجموعة من القصص الخيالية تحمل اسم (الأمير السعيد) ، وهي المجموعة التي تشكل معظم هذا الكتيب الذي تمسك به الآن .. وهي قصص شاعرية تتخذ طابع قصص الأطفال ، لكنها تعكس شفافية وحساسية غير عاديتين ، ثم أصدر رواية (صورة دوريان جراي) التي ناقش فيها العلاقة بين جمال الصورة وقبح الروح .. وبرغم إننا نراها اليوم أقرب إلى الروايات الأخلاقية فإنها كانت صادمة في وقتها ، واستخدمت دليلاً ضده في محاكمة (كوينزبيري) الشهيرة ..

في المسرح قدم لنا رواية (مروحة الليدي وندرمير) .. وعام ١٨٥٩ قدم تحفته (أهمية أن تكون جادًا) و(امرأة بلا أهمية) و(الزوج المثالي) ..

كان نجاح الرجل ساحقًا .. لكن أصدقاء السوء جعلوه ينزلق في عالم الرذيلة الذي يذكرنا كثيرًا جدًا بما عاشه الفتى (دوريان) في (صورة دوريان جراي) .. وسرعان ما قدمه والد صديق له إلى المحاكمة التي اشتهرت باسم (محاكمة كوينزبيري) ، وحكم عليه بالسجن عامين ، لكن ، هذا أفاده إذ كتب خطابًا شهيرًا وطويلاً جدًا يعتبر من درر أدب السجون ، اسمه (من الأعماق) أو (دي بروفندي) ..

بعد السجن يفر (وايلد) من إنجلترا التي لم يعد يطيقها .. فيذهب إلى فرنسا ويموت بالحمى الشوكية عام ١٩٠٠ .. وهو اليوم مدفون في (مونمارتر) هناك ..

لن ينسى محبو الأدب كلمة (وايلد) الشهيرة : إن الطبيعة تقلد الفنان .. كما لن ينسوا ما قاله (بيربوم)

عنه : كان الجمال موجوداً قبل عام ١٨٨٠ لكن (أوسكار وايلد) كان هو أول من رآه..

هاتان عبارتان جديرتان بالتأمل .. ولسوف تذكرهما مراراً وأنت تقرأ هذا الكتيب المليء بالجمال الذى لم يره إلا (أوسكار وايلد) ..

د. أحمد خالد توفيق

الأمير السعيد..

فى موضع عال من المدينة، فوق عمود عال يقف تمثال الأمير السعيد ..كان مكسواً بالكامل برقائق الذهب، وكانت عيناه حجرين براقين من الزفير، وثمة ياقوتة حمراء كبيرة تلتمع على مقبض سيفه ..

كان الكل يعجب به وقد وصفه أحد أعيان المدينة راغباً فى أن يعرف عنه تذوقه للفنون :

ـ «إنه جميل كدوارة الرياح ..» وأضاف : «لكنه ليس مفيداً مثلها ..»

لأنه خشى أن يحسبه الناس مفتقراً إلى التفكير العملى، وهو لم يكن كذلك..

وقالت أم حساسة لابنها الذى كان يبكى طالباً القمر :

ـ «لماذا لا تكون مثل الأمير السعيد؟ إنه لا يبكى لأى سبب ..»

وقال رجل محطم الآمال وهو ينظر إلى التمثال الرفيع :

ـ « يسرني أن هناك شخصاً سعيداً بحق في هذا العالم .. »

وقال الأطفال وهم يغادرون الكاتدرائية في عباءاتهم الحمراء اللامعة :

ـ « إنه يبدو كملاك .. »

قال لهم معلم الرياضيات :

ـ « كيف تعرفون ؟ أنتم لم تروا ملاكاً من قبل .. »

قال الأطفال : ـ « رأيناه في أحلامنا .. »

فقطب المعلم جبينه وبدا صارماً ، لأنه لم يحب فكرة أن يحلم الأطفال ..

* * *

ذات ليلة حلق طائر سنونو صغير فوق البلدة .. كان رفاقه قد هاجروا إلى مصر منذ ستة أسابيع ، لكنه بقي لأنه كان واقعاً في الغرام مع عصفورة جميلة قابلها يوماً وهو يسعى وراء دودة صفراء ..

ـ « هل لي أن أحبك ؟ »

كذا سألها السنونو الذي كان يختصر الطريق إلى مقصده ، فهزت رأسها هزة خفيفة ، من ثم راح يحلق حولها مراراً ، لامساً الماء بجناحيه فيترقرق السطح الفضي .. كانت هذه هي مغازلته وقد دامت طيلة الصيف ..

قالت العصافير الأخرى :

ـ « هذا ارتباط سخيف .. تلك العصفورة ليس لديها مال ، وعلاقاتها عديدة .. »

وكان النهر مليئاً بالعصافير الحسان ، لكنها طارت جميعاً في الخريف ..

بعد رحيلهن شعر بالوحشة .. وبدأ يسأم حبيبته :

ـ « إنها لاتجيد المحادثة .. ويؤسفني أنها كثيرة الدلال لأنها تعبث مع الريح كثيراً .. أوافق على أنها تهوى البيت ، لكنني أهوى الترحال وعلى امرأتي أن تهوى الترحال كذلك .. »

سألها أخيرًا :

ـ « هل تأتين معى ؟ »

فهزت رأسها .. فقد كانت شديدة التعلق ببيتها ..

قال لها :

ـ « كنت تسخرين منى وتخدعيننى كى أبقى جوارك .. لسوف أرحل إلى حيث الأهرام .. وداعًا .. »

وفارقها وطار بعيدًا ..

طيلة اليوم ظل يطير ، ومع المساء وصل إلى المدينة .. فقال لنفسه :

ـ « ترى أين أهبط ؟ أرجو أن تكون المدينة معدة لذلك .. »

ثم رأى التمثال على عموده الشامخ ..

ـ « سأهبط هناك .. إنه مكان جيد وهناك الكثير من الهواء النقى .. »

من ثم حط بين ساقى الأمير السعيد بالضبط .. ونظر حوله وقال لنفسه :

ـ « لدى الآن غرفة نوم ذهبية .. »

واستعد للنوم ، لكن ما إن وضع رأسه تحت جناحيه حتى سقطت قطرة من الماء عليه ..

ـ « أى شيء غريب ! لاتوجد سحابة واحدة فى السماء .. النجوم لامعة متألقة .. وبرغم هذا السماء تمطر .. إن الطقس فى شمال أوروبا غريب حقًا .. »

هنا سقطت قطرة أخرى فوقه ..

ـ « ما نفع التمثال إن لم يستطع منع الأمطار ؟ يجب أن أفتش عن فتحة مدفأة .. »

وتهيأ للطيران .. هنا سقطت قطرة ثالثة عليه فرفع رأسه لأعلى ليرى .. فما الذى رآه ؟

كانت عينا الأمير السعيد مفعمتين بالدموع .. وكانت الدموع تنحدر على خديه الذهبيتين .. كان وجهه جميلاً فى ضوء القمر حتى إن السنونو شعر بالشفقة .. وقال :

- « من أنت ؟ »

- « أنا الأمير السعيد .. »

- « ولماذا تبكى إذن ؟ لقد أغرقتنى بالماء »

قال التمثال :

- « حين كنت حيًا ولى قلب إنسان لم أكن أعرف كنه الدموع .. كنت أعيش فى قصر لايسمح للحزن بدخوله .. فى النهار كنت ألهو ورفاقى فى الحديقة وفى المساء كنت أقود جماعة الرقص .. كان هناك سور عال حول القصر ، لكنى لم أحاول قط أن أرى ماوراء هذا السور .. كان ندمائى يطلقون علىّ اسم (الأمير السعيد) وقد كنت بالفعل سعيدًا ، لو كانت السعادة هى اللذة .. كذا عشت وكذا مت .. والآن وضعونى فى هذا الموضع العالى كى أرى كل القبح والبؤس فى مدينتى .. وبرغم أن قلبى مصنوع من الرصاص فإنه ليس بوسعى إلا أن أبكى .. »

قال السنونو لنفسه :

- « ماذا ؟ أليس من الذهب ؟ »

فقد كان مهذبًا لايعلن عن ملحوظات كهذه بصوت عال .. هنا واصل التمثال الكلام :

- « بعيدًا فى شارع ضيق يوجد بيت صغير .. أحد النوافذ مفتوحة ومنها أرى امرأة جالسة إلى منضدة .. وجهها نحيل منهك ، ويداها حمراوان خشنتان مليئتان بثقوب الإبر لأنها خياطة .. إنها تطرز الزهور فى تنورة ستلبسها أجمل وصيفات الملكة فى حفل الرقص القادم .. فى الفراش يرقد ابنها مريضًا .. إنه محموم يطلب برتقالاً وليس لدى أمه ماتعطيه إلا ماء النهر لذا يصرخ .. أيها السنونو .. أيها السنونو الصغير .. هلا أعطيتها الياقوتة الموجودة على مقبض سيفى ؟ إن قدمى مثبتتان إلى هذه القاعدة ولايمكننى الحركة .. »

قال السنونو :

- « إن هناك من ينتظرنى فى مصر .. رفاقى الآن عند النيل فى أرض مصر ، يتكلمون مع زهور اللوتس الكبيرة .. ولسوف ينامون سريعًا فى مقبرة الملك الأعظم .. إن الملك ينام هناك فى تابوت ملون وقد التف بالكتان الأصفر ، وحنط بالطيوب .. يداه كالأوراق المجعدة وحول عنقه سلسلة من اليشب الأخضر .. »

قال الأمير :

- «أيها السنونو الصغير .. هلا بقيت معى ليلة واحدة وصرت مبعوثى ؟ إن الصبى محموم وظمآن .. والأم حزينة .. »

قال السنونو :

- « لا أحسبنى أحب الصبية .. فى الصيف الماضى كنت عند النهر وكان هناك صبيان هما ابنا بائع الحبوب .. كانا يقذفانى بالحجارة .. بالطبع لم يصيبانى لأننا معشر العصافير نجيد الطيران .. أضف لهذا أننى جئت من أسرة تمتاز بالسرعة .. لكن كانت هذه علامة على عدم الاحترام برغم كل شىء .. »

لكن الأمير بدا حزينًا إلى حد أن السنونو ندم على ما قال .. وقال :

- « الطقس بارد هنا للغاية .. لكنى سأبقى معك ليلة وأكون مبعوثك .. »

قال الأمير :

- «شكرًا أيها السنونو .. »

وهكذا التقط السنونو الياقوتة من مقبض السيف ، وحملها فى منقاره وحلق فوق أسقف البيوت .. مر فوق برج الكاتدرائية حيث التماثيل الرخامية .. ومر فوق القصر وسمع صوت الراقصات .. وخرجت حسناء إلى الشرفة مع حبيبها فقال لها :

- «كم أن النجوم جميلة ! وكم أن الحب قوى ! »

قالت له :

- « أتمنى أن يكون ثوبى جاهزًا للحفل الراقص .. لكن الخياطة كسول .. »

طار فوق النهر ورأى الفوانيس المعلقة فوق الزوارق .. وطار فوق الجيتو ورأى اليهود المسنين يساومون ويزنون الدراهم ..

فى النهاية بلغ المنزل ونظر بالداخل .. كان الصبى يتقلب محمومًا فى فراشه والأم نائمة .. وثب للداخل ووضع الياقوتة على المنضدة جوار المرآة ..

ثم حلق فوق الفراش ليجلب بعض الهواء إلى جبين الطفل الملتهب ..

قال الطفل :

ـ «كم أشعر بالبرد .. لابد أننى أتحسن .. »

وغاص فى نوم عميق لذيذ ..

ثم إن السنونو حلق عائدًا إلى الأمير السعيد وأخبره بما قام به :

ـ « هذا غريب لكنى أشعر بالدفء برغم أن الطقس بارد .. »

قال الأمير :

ـ « هذا لأنك قمت بعمل خير .. »

فكر السنونو قليلاً ثم غرق فى النوم .. كان التفكير دومًا يجلب النعاس إلى عينيه ..

حين بزغت الشمس طار إلى النهر واستحم ..

قال أستاذ علم الطيور وهو يمشى على الجسر :

ـ « هذا غريب ! سنونو فى الشتاء ! »

وكتب خطابًا طويلاً عن هذه الظاهرة إلى الجريدة المحلية .. وكان الخطاب مليئًا بكلمات معقدة لم يفهمها أحد ..

قال السنونو وقد ارتفعت معنوياته :

ـ « الليلة أنطلق إلى مصر .. »

زار كل المعالم المهمة فى المدينة وكلما قصد مكانًا ، غردت العصافير وقالت :

ـ «ياله من غريب متميز ! »

وحين ارتفع القمر عاد إلى الأمير السعيد :

ـ « هل لديك مهمات فى مصر ؟ أنا سأنطلق الآن .. »

قال الأمير :

ـ « أيها السنونو .. أيها السنونو الصغير .. هلا ظللت معى ليلة أخرى ؟ »

أجاب السنونو :

ـ « هم ينتظروننى فى مصر .. غدا يسافر رفاقى إلى

الشلال الثلجى .. حيث أفراس النهر تتوارى بين الشجيرات،
وعلى عرش ضخم من الجرانيت يجلس تمثال (ممنون) ..
طيلة الليل يرقب النجوم وحين تبزغ شمس النهار يطلق
صيحة سرور ثم يعود إلى الصمت .. وعند الظهيرة
تأتى الأسود الصفراء إلى حافة النهر لتشرب ..
وزئيرها أعلى من زئير الشلال .. »

قال الأمير :

- « عبر المدينة أرى شابًا يعيش فى سقيفة .. إنه
ينحنى على منضدة تغطيها الأوراق .. وجواره باقة
أزهار بنفسج ذابلة .. له عينان حالمتان واسعتان وشفتان
حمراوان، وهو يحاول الانتهاء من كتابة مسرحية لمسرح
المدينة .. لكن البرد يمنعه من المزيد من الكتابة ..
لا نار فى السقيفة والسغب يجعله يفقد الوعى .. »

قال السنونو الذى كان طيب القلب بالفعل :

- « لسوف أبقى معك ليلة أطول .. هل أحمل له
ياقوتة أخرى ؟ »

- « للأسف لم يعد لدى ياقوت .. عيناى هما ما بقى
لى، وهما مصنوعتان من الزفير النادر الذى جىء به
من الهند من ألف عام .. انتزعهما وخذهما له ..
ولسوف يبيعهما للصائغ ويبتاع طعامًا وحطبًا .. من
ثم ينتهى من كتابة مسرحيته .. »

قال السنونو وهو يبكى :

- « أيها الأمير العزيز .. ليس بوسعى أن أفعل هذا .. »

قال الأمير :

- « أيها السنونو .. أيها السنونو الصغير .. افعل
كما آمرك .. »

هكذا وجد السنونو نفسه مرغمًا على انتزاع الزفير،
وحلق نحو غرفة الكاتب .. كان الدخول سهلاً لأن
السقف كانت فيه فتحة واسعة .. كان الشاب قد دفن
رأسه بين كفيه فلم يسمع صوت رفيف جناحى السنونو ..
وحين رفع وجهه وجد قطعة الزفير فوق أزهار
البنفسج الذابلة ..



صاح :

ـ «لقد بدأ الناس يشعرون بقيمتى .. هذه الجواهر من معجب عظيم ولاشك .. الآن يمكننى أن أنهى مسرحيتى .. »

وبدا مسرورًا جدًا ..

فى الصباح التالى طار العصفور إلى الميناء ، وراح يراقب البحارة وهم يرفعون صناديق كبيرة مربوطة بالحبال .. صاح السنونو :

ـ «أنا ذاهب إلى مصر !»

لكن أحدًا لم يبال به ، وحين ارتفع القمر عاد إلى الأمير السعيد ..

ـ «جئت كى أودعك .. »

ـ «أيها السنونو .. أيها السنونو الصغير .. ألاتبقى معى ليلة أخرى ؟»

قال السنونو :

ـ «إنه الشتاء .. ولسوف يأتى الجليد سريعًا .. فى

مصر لشمس الدافئة تشرق على أشجار النخيل، والتماسيح تنعس فى الوحل ناظرة فى كسل إلى ما حولها .. رفاقى يبنون عشًا فى معبد (بعلبك)(*) واليمام الأبيض يراقبهم .. أيها الأمير العزيز .. يجب أن أتركك .. لكننى فى الربيع سأجلب لك جوهرتين جميلتين بدلاً من اللتين تخليت عنهما .. الياقوتة ستكون أكثر احمرارًا من الوردة، والزفير سيكون أكثر زرقة من البحر .. »

قال الأمير :

ـ « فى الميدان تحتى هناك بائعة ثقاب صغيرة .. لقد سقط الثقاب منها فى البالوعة، ولسوف يضربها أبوها بسبب هذا .. إنها تبكى .. رأسها الصغير عار وقدماها حافيتان .. خذ عينى الأخرى وأعطها إياها .. »

قال السنونو :

ـ « سأبقى ليلة أخرى .. لكن لو انتزعت عينك ستصير أعمى تمامًا .. »

(*) طبعًا من الواضح أن الشاعر لا يعرف عن مصر الكثير ..

ـ « أيها السنونو .. أيها السنونو الصغير .. افعل كما آمرك .. »

من ثم انتزع الزفير وانطلق إلى حيث بائعة الثقاب الصغيرة .. وألقى الجوهرة فى كفها ..

صاحت الفتاة :

ـ « يا لها من قطعة زجاج جميلة ! »

وانطلقت نحو البيت وهى تضحك ..

عاد السنونو إلى الأمير وقال له :

ـ « أنت الآن أعمى .. لسوف أبقى معك للأبد .. »

ـ « لا أيها السنونو الصغير .. يجب أن تذهب إلى مصر .. »

قال السنونو :

ـ « بل سأبقى معك للأبد .. »

ونام عند قدمى الأمير ..

فى اليوم التالى ظل يقف على كتف الأمير ويحكى له قصصًا غريبة عما شاهده .. حكى له عن طيور (أبو منجل) التى تقف صفوفًا على حافة النيل لتصطاد السمك بمناقيرها .. وعن أبى الهول الذى هو أقدم من الدنيا ذاتها ويعرف كل شىء .. وعن التجار الذين يمشون الهوينى جوار جمالهم ، ويحملون مسابح من العنبر بين أصابعهم .. عن ملك جبال القمر الذى هو أكثر سوادًا من الأبنوس ، ويعبد جوهرة كبيرة .. عن الثعبان الأخضر العظيم الذى يعيش فى شجرة ويغنى به عشرون كاهنًا .. عن الأقزام الذين يسبحون فى النهر راكبين على أوراق شجر ضخمة ، وهم فى حرب دائمة مع الفراشات ..

قال الأمير :

ـ «أيها السنونو الصغير العزيز .. أنت تحكى لى أشياء مذهلة .. لكن الأكثر غرابة هو معاناة الناس .. لايوجد لغز أكثر استغلاقًا من الشقاء .. طر فوق المدينة وأخبرنى بما تراه هناك»

وطار السنونو فوق المدينة .. رأى الأثرياء ينعمون

فى قصورهم بينما الشحاذون يتسولون أمام الأبواب .. طار فى الأزقة ورأى وجوه الأطفال الجياع البيضاء الشاحبة ..

وتحت الجسر رأى غلامين ينامان وقد احتضنا بعضهما طلبًا للدفء :

ـ «كم نحن جائعان !»

صاح خفير الدرك :

ـ «ليس لكما أن تناما هنا !»

من ثم فر الغلامان إلى المطر .. وعاد السنونو إلى الأمير يخبره بما رأى ..

ـ «أنا مغطى برقائق الذهب .. انزعها واحدة واحدة .. أعطها للناس الذين يحسبون أن الذهب سيجعلهم أكثر سعادة ..»

التقط السنونو ورقة تلو أخرى من الذهب ، حتى صار الأمير السعيد رماديًا كئيب المنظر .. وورقة تلو أخرى يحملها إلى الفقراء ، حتى ازدانت وجوه الأطفال توردًا وراحوا يضحكون ويلعبون ..

- «لقد صار لدينا الخبز الآن !»

ثم جاء الثلج وبعده الجليد .. وبدت الشوارع كأنما هى من فضة ، وارتدى الجميع الفراء .

ازداد شعور السنونو البائس بالبرد .. لكنه لم يرد أن يفارق الأمير . فقط راح يحاول أن يتدفأ بتحريك جناحيه .. لكنه فى النهاية عرف أن موته قريب .. استجمع قواه وطار إلى كتف الأمير وقال له :

- «وداعًا أيها العزيز .. هل لى أن ألثم يدك ؟»

قال الأمير :

- «يسعدنى أنك ذاهب إلى مصر أخيرًا أيها السنونو الصغير .. لكن أرجو أن تلثم شفتىّ فإننى أحبك ..»

- «لست ذاهبًا إلى مصر ولكن إلى بيت الموت .. إن الموت شقيق النوم .. أليس كذلك ؟»

ولثم ثغر الأمير ثم هوى ميتًا عند قدميه ..

فى هذه اللحظة دوى صوت شرخ غريب من داخل التمثال كأنما تحطم شىء .. الحقيقة أن قلب الأمير الرصاصى انشطر إلى نصفين ..

فى الصباح كان العمدة يمشى فى الميدان مع أعيان البلدة .. مروا بالعمود فرأوا التمثال :

- «رباه ! ما أقبح الأمير السعيد !»

صاح الأعيان الذين لم يختلفوا مع العمدة قط :

- «ما أقبحه فعلاً .. لم تعد الياقوتة فى سيفه وعيناه تلاشتا .. ولم يعد مكسوًا بالذهب ..»

- «إنه ليس أفضل حالاً من الشحاذين .. وهناك طير ميت على قدمه .. علينا أن ننشر إعلانًا يمنع الطيور من أن تموت هنا ..»

وقال أستاذ الفنون فى الجامعة :

- «ما دام لم يعد جميلاً فهو لم يعد مفيدًا ..»

وهكذا شدوا التمثال وأذابوه فى فرن كبير ، ثم عقد العمدة اجتماعًا للمجلس البلدى ، لتحديد ما يمكن عمله بالمعدن المنصهر ..

- «سنصنع تمثالاً آخر .. ولسوف يكون هذا التمثال لى ..»

تصايح الأعيان وكل منهم يريد التمثال لنفسه ..
وآخر ما سمعت أنهم ما زالوا يتشاجرون .. ولاحظ
العمال أن القلب لاينصهر لهذا تخلصوا منه فى القمامة
حيث كانت جثة السنونو ..

* * *

قال الخالق لملائكته :

ـ « هاتوا لى أثمن شيئين فى تلك المدينة .. »

وعاد الملائكة للخالق بقلب التمثال الرصاصى
وجثة السنونو ..

ـ « لقد أحسنتم الاختيار ، لأنه فى حدائق جنتى سوف
يغرد هذا الطائر للأبد .. وفى مدينتها الذهبية سيسبح
هذا الأمير السعيد بحمدى .. »

* * *

العندليب والوردة..

صاح التلميذ :

ـ « قالت إنها سترقص معى لو جلبت لها وردًا
أحمر .. لكن لايوجد ورد أحمر فى حديقتى .. »

سمعه البلبل من عشه فى السنديانة ونظر من بين
الأوراق متسائلاً ..

ـ « لاوردة حمراء فى حديقتى .. »

قالها التلميذ وامتلأت عيناه الجميلتان بالدموع ..

ـ « آه .. ما أصغر الأشياء التى تعتمد عليها سعادتنا ..
لقد قرأت كل ماكتبه الحكماء .. وملكت كل أسرار الفلسفة ،
لكن من أجل وردة حمراء تصير حياتى شقاء .. »

قال البلبل :

ـ « هنا أخيرًا عاشق حقيقى .. ليلة تلو ليلة غنيت
له برغم أننى لم اعرفه قط .. ليلة تلو ليلة حكيت قصته

للنجوم .. والآن أراه .. شعره أسـود كبرعم الزنبق .. شفتاه حمراوان كالورد .. لكن العاطفة جعلت وجهه بلون العاج ، ووضع الأسى خاتمه على حاجبيه .. »

غمغم التلميذ :

ـ « الأمير يقيم حفلاً راقصًا مساء غد .. وحبيبتى ستكون هناك .. لـو جلبت لهـا وردة حمـراء فلسوف ترقص معى حتى الفجر .. لو جلبت لها وردة حمـراء فلسوف أحتويها فى ذراعى .. ولسوف تريح رأسها على كتفى ، ولسوف أحتوى يدها فى يدى .. لكن مـا من وردة حمراء فى حديقتى ولذا سأجلس وحيدًا .. فتمر هى بى .. لن تحتاج إلىّ .. ولسوف يتحطم قلبى .. »

قال البلبل :

ـ « هذا عاشق حقيقى بالفعل .. ما أغنى له يعانيه هو .. وما يمثل السعادة لى هو الألم له .. إن الحب شىء ثمين .. أثمن من الزمرد وأعز من (الأوبال) .. اللؤلؤ لايقدر على ابتياعه وهو لايباع فى الأسواق .. ولا يمكن أن يوزن بموازين الذهب .. »

قال التلميذ :

ـ « لسوف يقف الموسـيقيون ويعزفون على آلاتهم الوترية .. ولسوف ترقص حبيبتى على أنغام القيثـار والكمان .. لسوف ترقص بخفة حتى إن قدميها لن تلمسا الأرض .. ولسوف يلتف حولها المغازلون .. لكنها لن ترقص معى لأننى لا أملك وردة حمراء أعطيها إياها .. »

ورمى بنفسه على الأرض ، ودفن وجهه فى يديه وبكى ..

وتساءلت سحلية خضراء جرت بجواره :

ـ « لماذا يبكى ؟ »

وتساءلت فراشة تحلق فى شعاع الشمس :

ـ « حقًا لماذا ؟ »

وهمست زهرة أقحوان لجارتها فى صوت خفيض :

ـ « حقًا لماذا ؟ »

فقال البلبل :

ـ « يبكى من أجل وردة حمراء .. »

صاحوا :

ـ « وردة حمراء ؟ يا للسخف ! »

وضحكت السحلية التى كانت أميل إلى السخرية ..
لكن البلبل فهم تعاسة التلميذ وجلس على السنديانة يفكر فى لغز الحب ..

فجأة فرد جناحيه البنيين ملحقًا ، وانطلق فى السماء .. حلق فوق الحديقة كالظل .. وفى وسط المرج كانت شجرة الورد .. فلما رآها حط على غصن صغير وقال :

ـ « أعطينى وردة حمراء ، ولسوف أغنى لك أحلى أغنية عندى .. »

لكن الشجرة هزت رأسها وأجابت :

ـ « ورودى بيضاء .. بيضاء كزبد البحر وأكثر بياضًا من الثلج على قمم الجبال .. لكن اذهب إلى أختى عند الساعة الشمسية فلربما تمنحك ماتريد .. »

لذا حلق البلبل نحو شجرة الورد عند الساعة الشمسية ، وصاح :

ـ « أعطينى وردة حمراء ، ولسوف أغنى لك أحلى أغنية عندى .. »

لكن الشجرة هزت رأسها وأجابت :

ـ « ورودى صفراء .. صفراء كشعر عروس البحر الجالسة على عرش من العنبر .. وأكثر اصفرارًا من زهور النرجس فى المرج قبل أن يأتى من يجز العشب حاملاً منجله .. لكن اقصد أختى التى تنمو جوار نافذة التلميذ فلربما تمنحك ماتريد .. »

هكذا حلق البلبل نحو شجرة الورد التى تنمو جوار نافذة التلميذ .. وقال لها :

ـ « أعطينى وردة حمراء ، ولسوف أغنى لك أحلى أغنية عندى .. »

لكن الشجرة هزت رأسها وأجابت :

ـ « ورودى حمراء .. حمراء كقدمى يمامة .. وأكثر احمرارًا من مراوح شعب المرجان التى تتموج وتتموج فى كهوف المحيط .. لكن الشتاء قد جمد أوصالى ، والعواصف هشمت غصونى ، ولن أظفر بزهور هذا العام .. »

صاح البلبل :

ـ « وردة حمراء واحدة هى كل ما أبغيه .. فقط وردة حمراء ! هل من طريقة أظفر بها ؟ »

قالت الشجرة :

- «ثمة طريقة لكنها شنيعة ، إلى حد أننى لا أجسر على إخبارك بها .. »

قال البلبل :

- «قوليها لى فلست خائفا .. »

- «لو أردت وردة حمراء ، فعليك أن تصنعها من الموسيقا فى ضوء القمر ، وتصبغها بالدم من قلبك .. عليك أن تغنى لى وصدرك منضغط إلى شوكة .. طيلة الليل يجب أن تغنى لى والشوكة تخرق قلبك ، ويجب أن ينساب دم حياتك فى عروقى .. ويصير لى .. »

صاح البلبل :

- «الموت ثمن باهظ يدفع لوردة حمراء .. والحياة عزيزة على الجميع .. من الجميل أن يجلس المرء فى الغابة الخضراء ، ويرقب الشمس فى مركبتها الذهبية ، والقمر فى مركبته اللؤلؤية .. عذبة هى رائحة زهرة الزعرور ، وعذبة هى زهور (بلوبيل) فى الوادى ، وزهور

الخلنج التى تطير فوق التل .. لكن الحب أجمل من الحياة .. وما قيمة قلب الطائر بالنسبة لقلب إنسان ؟ »

من ثم حلق البلبل إلى الهواء .. حلق فوق الحديقة كظل .. وكظل حلق فوق الروضة ..

كان التلميذ مازال جالسا على العشب والدموع لم تجف بعد من عينيه الجميلتين ..

صاح البلبل :

- «كن سعيدا .. كن سعيدا فلسوف تظفر بوردتك الحمراء .. سأصنعها من الغناء فى ضوء القمر ، وأصبغها بدماء قلبى .. كل ما أطلبه منك أن تكون محبا حقيقيا لأن الحب أكثر حكمة من الفلسفة .. وأقدر من القوة .. جناحاه بلون النار وبلون النار جسده .. شفتاه حلوتان كالعسل ، وأنفاسه عطرة كالبخور .. »

نظر الفتى لأعلى وأصغى .. لكنه لم يع ما يقوله البلبل له ، لأنه كان يعرف فقط تلك الأشياء المكتوبة فى الكتب .. لكن السنديانة فهمت وشعرت بالأسى ، لأنها كانت تحب البلبل الصغير الذى اتخذ عشه بين أغصانها ..

قالت له :

ـ «غن لى أغنية أخيرة ، فسوف أشعر بالوحدة حين ترحل أنت .. »

لذا غنى البلبل للشجرة وكان صوته كالماء ينساب من إناء فضى ..

انتهى البلبل من الغناء فنهض التلميذ وأمسك بمفكرة وراح يكتب فيها :

ـ «إن له جمالاً لايمكن إنكاره ..لكن هل لديه أحاسيس؟ أخشى أن لا ..فى الحقيقة هو مثل أكثر الفنانين ..له أسلوب خلاب لكنه يفتقر إلى الإخلاص ..ولن يضحى بنفسه للآخرين ..كلنا نعرف أن الفنون أنانية بطبعها ..لكن لاتنكر أن فى صوته نغمات ساحرة ..ومن المؤسف أنها لاتعبر عن أى شىء ، وليس لها نفع عملى .. »

ثم دخل إلى حجرته فتمدد فى فراشه ، وراح يفكر فى حبيبة قلبه حتى غلبه النعاس ..



وحين بزغ القمر فى السماء ، طار البلبل إلى شجرة الورد وألصق صدره بالشوكة .. ومال القمر البلورى البارد يصغى ..

طيلة الليل ظل البلبل يغنى وصدره ملصق بالشوكة التى توغلت أعمق فأعمق فى قلبه ، وراح دم الحياة يتسرب منه ..

غنى لميلاد الحب فى قلب فتى وفتاة .. ومن شجرة الورد ظهر برعم جميل وبدأت بتلاته تزداد بينما الأغانى تتوالى .. فى البدء كانت شاحبة كالضباب فوق النهر ، فضية كجناحى الفجر ..

كظل زهرة فى مرآة من فضة .. كظل زهرة فى المياه ، بدت الوردة التى بدأت تولد على غصن من الشجرة ..

لكن الشجرة توسلت إلى البلبل أن يضغط بصدره أكثر على الشوكة :

ـ « اضغط أكثر أيها البلبل وإلا بزغت الشمس قبل أن تولد الوردة .. »

غنى البلبل بصوت أعلى ، وبدا لون وردى رقيق يتسرب إلى أوراق الوردة .. كأنها الحمرة التى تغزو وجه عريس يلقى عروسه .

وصاحت الشجرة فى البلبل :

« اضغط أكثر أيها البلبل وإلا بزغت الشمس قبل أن تولد الوردة .. »

ضغط البلبل أكثر فتفاقم الألم ، وكان قاسيًا مريرًا مريرًا .. لذا ازدادت أغنيته ألمًا .. راح يترنم بقصص الحب التى تموت لكن ليس فى القبور ..

وصارت الوردة قرمزية .. قرمزية مثل الياقوت ..

ازداد وهن صوت البلبل وراح جناحاه الصغيران يرجفان ، وخيمت غشاوة على عينيه .. وشعر بشىء يخنقه .. عندئذ أطلق موجة موسيقا أعلى سمعها القمر الشاحب فنسى الفجر ..

سمعتها الوردة الحمراء ، فارتجفت وفتحت بتلاتها لهواء الصباح المبكر ..

حملها الصدى إلى التلال فصحا الرعاة من نومهم .. طفت فوق النهر فحملتها الطيور إلى البحار ..

صاحت الشجرة :

ـ « انظر ! لقد اكتملت الوردة الآن .. »

لكن البلبل لم يرد لأنه كان ميتًا وسط الأعشاب والشوكة في قلبه ..

وعند الظهيرة فتح التلميذ نافذته ، وصاح :

ـ «ياله من حظ رائع ! هنا وردة حمراء ! أنا لم أر قط وردة حمراء كهذه في حياتي .. إنها جميلة إلى حد أنني متأكد من أن لها اسمًا لاتينيا طويلاً .. »

واقتطفها واعتمر قبعته وجرى إلى بيت أستاذه والوردة في يده ..كانت ابنة الأستاذ جالسة هناك وكلبها عند قدميها ..

صاح التلميذ :

ـ «قلت إنك سترقصين معي لو جلبت وردة حمراء .. ها هي ذي أكثر الورود حمرة في العالم .. الليلة تضعينها جوار قلبك ، وبينما نرقص معا ،سوف تخبرك كم أحبك .. »

لكن الفتاة قطبت ، وقالت :

ـ «يؤسفني أنها لا تتناسب مع ثوبي .. بالإضافة لهذا أرسل لي ابن أخ (شامبرلين) مجوهـرات حقيقيـة .. وكلنا يعرف أن المجوهرات أغلى ثمنًا من الورود .. »

قال التلميذ في غضب :

ـ « أقسم بالله إنك جاحدة .. »

وألقى الوردة في الشارع حيث سقطت وداستها عجلات عربة مارة ..

قالت الفتاة :

ـ «جاحدة ! سأخبرك بشيء .. أنت غليظ الطباع ، وبعد هذا كله ..من أنت ؟ أنت مجرد تلميذ .. لاأعتقد أن لديك أربطة فضية لحذاءيك مثلما يملك ابن أخ (شامبرلين) .. »

ونهضت من مقعدها ودخلت البيت ..

قال التلميذ وهو عائد لداره :

ـ «ما أسخف الحب ! إنه ليس في نصف منفعة علم المنطق .. لأنه لايبرهن على شيء .. وهو يخبرك فقط بالأشياء التي لن تحدث ، ويجعلك تؤمن بأشياء لاوجود لها ..في الحقيقة الحب غير عملي بالمرة .. سوف أعود لدراسة الفلسفة والميتافيزيقا .. »

لذا عاد إلى داره وتناول كتابًا ضخمًا يكسوه الغبار ، وراح يقرأ ..

* * *

العملاق الأنانى ..

اعتاد الأطفال كل عصر وهم عائدون من المدرسة ، أن يلعبوا فى حديقة العملاق ، كانت حديقة جميلة بها عشب ناعم أخضر ، وفوق العشب كنت ترى هناك وهناك زهورًا جميلة كالنجوم .. وكانت هناك اثنتا عشرة شجرة خوخ تعطى ثمارًا لذيذة .. وكانت الطيور تجلس على الغصون وتغنى أجمل الأغانى ، حتى إن الأطفال كانوا يكفون عن اللهو ليصغوا إليها .

وكانوا يتصايحون :

ـ « شد ما نحن سعداء هنا !! »

ذات ليلة عاد العملاق ، كان قد ذهب لزيارة صديقه الغول فى (كورنوول) ، وبقى معه سبع سنوات ، وبعد سبعة الأعوام كان قد فرغ من قول كل ما يريد قوله

لأنه كان لايطيل الكلام ، وقرر العودة إلى قلعته ، حين بلغها رأى الأطفال يلعبون فى الحديقة ، فصاح بصوت غليظ :

ـ « ماذا تعملون هنا ؟ »

فبادر الأطفال بالفرار .

قال العملاق :

ـ « حديقتى هى حديقتى .. يمكن لأى واحد أن يفهم هذا ، ولن أترك واحدًا يلعب فيها ما عداى .. »

لذا ابتنى جدارًا حولها ، ووضع لافتة تقول :

المتعدون سيعاقبون

كان عملاقًا شديد الأنانية .. ولم يعد لدى الأطفال البؤساء من مكان يلعبون فيه ، حاولوا اللعب على الطريق لكنه كان مغبرًا مليئًا بالصخور الصلبة ولم يرق لهم ، واعتادوا أن يدوروا حول الجدار حين تنتهى دراستهم ويتكلموا عن الحديقة الجميلة بالداخل .

وكانوا يقولون :

ـ « كم كنا سعداء هناك ! »

ثم جاء الربيع وانتشرت براعم الزهور والطيور الصغيرة فى البلاد .. فقط فى حديقة العملاق الأنانى ظل الشتاء مقيمًا ، فالطيور لم تبال بالغناء هناك حيث لايوجد أطفال ، والأشجار نسيت أن تخرج زهورها ، ذات مرة أخرجت زهرة رأسها من بين الأعشاب لكنها أبصرت اللافتة ، فأسفت من أجل الأطفال وعادت برأسها إلى الداخل .

لم يكن هناك من سرّه الحال سوى الثلج والصقيع ، وقد صاحا :

ـ « الربيع قد نسى هذه الحديقة .. ولسوف نظل هنا طيلة العام .. »

وغطى الثلج العشب بعباءته البيضاء ودهن الصقيع الأشجار باللون الفضى ، ثم إنهما دعيا الريح الشمالية كى تأتى فجاءت ، كانت متدثرة بالفراء وقد ظلت تعوى حول الحديقة طيلة اليوم وقالت :

ـ « هذا مكان مبهج .. يجب أن ندعو البرد لزيارة .. »

وجاء البرد .. وظل يضرب القلعة كل يوم حتى حطم أكثر الألواح فى السقف ، ثم راح يجرى فى الحديقة بأقصى سرعة له ، كان مدثرًا فى الرمادى وأنفاسه كالجليد .

قال العملاق الأنانى :

ـ « لا أفهم لماذا تأخر الربيع كل هذا .. أرجو أن يتغير الطقس .. »

لكن الربيع لم يأت قط ولا الصيف .. وجاء الخريف بثمار ذهبية لكل الحدائق ما عدا حديقة العملاق وقال :

ـ « إنه أنانى .. »

وهكذا لم يكن فى الحديقة سوى الثلج والصقيع والريح الشمالية والبرد يرقصون بين الأشجار ..

ذات صباح كان العملاق راقدًا متيقظًا فى فراشه سمع موسيقا جميلة ، بدت رائعة إلى حد أنه حسب موسيقى

الملك يمرون بالدار ، كان هذا طائراً صغيراً يغنى خارج النافذة لكن كان قد مضى دهر منذ سمع غناء طائر فى الحديقة حتى إنه شعر بأن هذه أجمل موسيقا فى الكون .

ثم إن العملاق شم عطراً جميلاً فقال :

ـ « لابد أن الربيع جاء أخيراً .. »

وثب من الفراش ونظر خارج النافذة فماذا رأى ؟

رأى أجمل منظر فى العالم .. لقد زحف الأطفال إلى الحديقة من فتحة فى الجدار ، وفوق غصن كل شجرة كان هناك طفل صغير .. وكانت الأشجار فى غاية السرور لرؤية الأطفال حتى إنها تغطت بالبراعم وراحت تلوح بأذرعها فوق رءوس الأطفال .

الطيور كانت تغنى والزهور أطلت برأسها من العشب الأخضر وراحت تضحك ، كان مشهداً جميلاً إلا أنه فى ركن من الحديقة ظل الشتاء ، فى هذا الركن كان صبى صغير يقف .. كان صغيراً إلى حد أنه لم يستطع

الوصول إلى غصن شجرة .. وظلت الشجرة البائسة مكسوة بالصقيع .. انحنت بغصونها وراحت تصيح :

ـ « تسلق أيها الصبى .. تسلق ! »

لكن الصبى كان صغير الحجم .. وذاب قلب العملاق حين رأى المشهد :

ـ « كم كنت أنانيًا ! الآن عرفت لماذا لم يزرنى الربيع .. سوف أضع الصبى على غصن الشجرة ، ثم أهدم السور وتعود حديقتى ملعبًا للأطفال .. »

وخرج إلى الحديقة ، فما إن رآه الأطفال حتى فروا رعبًا وعاد الشتاء إلى الحديقة .. فقط الصبى الصغير ظل هناك لأن عينيه كانتا غارقتين فى الدموع فلم ير العملاق ..

حمله العملاق على يديه برفق ووضعه على الشجرة ، فأزهرت الشجرة وعادت الطيور تغنى .. احتضن الصبى العملاق ولثمه على خده ..

هنا عاد الأطفال وقد رأوا أن العملاق لم يعد شريراً كما كان .. ومعهم عاد الربيع .

ـ « هذه حديقتكم الآن أيها الأطفال .. »

قالها العملاق وتناول فأسًا وحطم السور .. وحين ذهب الناس إلى السوق فى الثانية عشرة ظهرًا وجدوا العملاق يلهو مع الأطفال فى أجمل حديقة فى العالم .

ظلوا يلعبون طوال اليوم ، وفى المساء راحوا للعملاق ليودعوه ، فقال لهم :

ـ « ولكن أين رفيقكم الصغير ؟ الذى وضعته فوق الشجرة .. »

أجاب الأطفال :

ـ « لانعرف ... لقد رحل .. »

قال العملاق :

ـ « قولوا له أن يحضر هنا غدًا .. »

لكن الأطفال قالوا إنهم لايعرفون أين يسكن ولم يروه قط من قبل .. مما أحزن العملاق ..

وفى كل عصر بعد ساعات المدرسة كان الأطفال يلعبون مع العملاق .. لكن الصبى الذى أحبه العملاق لم يظهر قط ، وكان العملاق مشتاقًا له :

ومرت أعوام وازداد العملاق وهنًا وشيخوخة ، ولم يعد يستطيع اللعب لذا كان يجلس إلى مقعد كبير ويراقب الأطفال فى أثناء لعبهم وينظر لحديقته :

ـ « إن لدى زهورًا جميلة لكن الأطفال أكثر الزهور جمالاً .. »

وفى صباح شتاء كان يرتدى ثيابه وينظر من النافذة ، لم يعد يكره الشتاء الآن لأنه عرف أنه ليس إلا الربيع نائمًا ، والزهور تستريح ، وفجأة فرك عينيه فى عجب .. لقد كان بالتأكيد مشهدًا رائعًا .

ففى أقصى أركان الحديقة كانت شجرة كل أغصانها من الذهب ، وثمار فضية تتدلى منها ، وتحتها الطفل الصغير الذى أحبه .

جرى العملاق فى الحديقة والسرور يغمره ، وعبر العشب أسرع حتى بلغ الطفل ، فحين رآه عن كثب احمر وجهه غضبًا وصاح :

ـ « من جرؤ على أن يجرحك ؟ »

لأنه على يدى الصبى الصغيرتين وعلى قدميه كانت آثار مخلبين كبيرين .

ـ « من جرؤ على أن يجرحك ؟ قل لى فسوف آخذ سيفى الكبير وأقتله .. »

قال الصبى :

ـ « لا أحد .. بل هى جروح الحب .. »

قال العملاق :

ـ « من أنت ؟ »

وفى قلبه سقطت رهبة غريبة ، وجثا على ركبتيه فابتسم الطفل وقال له :

ـ « أنت تركتنى ألعب فى حديقتك .. واليوم سوف تلعب معى فى حدائق الجنة .. »

وحين جاء الأطفال عصرًا وجدوا العملاق ميتًا تحت الشجرة ، وقد تغطى جسده كله بالبراعم البيضاء .

* * *

الصديق المخلص ..

ذات صباح أطل فأر الماء العجوز برأسه من جحره .. كانت عيناه صغيرتين كالخرز ، وله شاربان رماديان متصلبان . كان البط الصغير يسبح فى البركة كأنما هو حشد من طيور الكناريا الصفراء .. وكانت الأم البيضاء ذات الساقين الحمراوين ، تعلم بطاتها كيف تقف فى الماء على رءوسها .

قالت لهن كدأبها :

ـ « لن تظفرن بمكانة اجتماعية طيبة ما لم تتعلمن الوقوف على الرأس .. »

ومن آن لآخر كانت تريهن بنفسها ، لكن البطات الصغيرات لم تبد اهتمامًا بها ، كن صغيرات جداً إلى حد أنهن لم يرين أهمية ما للمكانة الاجتماعية ..

صاح فأر الماء العجوز :

ـ « يا للأطفال العصاة ! إنهم يستحقون أن يغرقوا .. »

قالت البطة :

ـ « لا شيء من هذا .. لابد لكل امرئ من بداية .. ولا يجب أن يفقد الأبوان صبرهما .. »

قال الفأر :

ـ « آه .. أنا لا أعرف شيئاً عن شعور الآباء ، فلست رجل أسرة .. فى الحقيقة أنا لم أتزوج قط ولا أزمع هذا .. إن الحب جميل لكن الصداقة أسمى منه بكثير .. لا أعرف فى الكون ما هو أسمى ولا أندر من صديق مخلص .. »

سأله طائر أخضر يجلس على شجرة صفصاف :

ـ « وما هى من فضلك فكرتك عن واجبات الصديق المخلص ؟ »

قالت البطة :

ـ « فعلاً .. هذا ما أرغب فى معرفته .. »

وسبحت إلى نهاية البركة ، ثم وقفت على رأسها لتبين للبط مثالاً جيدًا .

صاح فأر الماء :

ـ « يا له من سؤال سخيف ! أتوقع من صديقى المخلص أن يخلص لى .. »

سأله الطائر وهو يتأرجح على غصن فضى وهو يرفرف بجناحيه :

ـ « وماذا تفعل بالمقابل ؟ »

ـ « لا أفهمك .. »

ـ « دعنى أحكِ لك قصة ؟ »

سأله الفأر :

ـ « وهل القصة عنى ؟ لو كان كذلك فسوف أصغى لأننى مغرم بالحكايات .. »

قال الطائر :

ـ « إنها تنطبق عليك .. »

وهبط على الضفة وراح يحكى قصة الصديق المخلص .

قال الطائر :

ـ « كان يا ما كان .. كان هناك شاب أمين اسمه (هانز) .. »

سأله الفأر :

ـ « هل كان مرموقًا ؟ »

ـ « لا .. لا أحسبه مرموقًا على الإطلاق .. فيما عدا قلبه الطيب ، ووجهه المرح المستدير ، عاش وحيدًا فى كوخ صغير يعمل فى حديقته ، ولم تكن فى الريف كله حديقة بجمال حديقته ، وكل أنواع الزهور كانت فى حديقته .. بحيث كانت هناك دومًا أشياء مبهرة للنظر وللأنف .. »

ـ « كان لدى (هانز) أصدقاء كثيرون ، لكن أكثرهم إخلاصًا له كان (هو) الطحان .. حقا كان مخلصًا له إلى حد أنه لم يزر حديقته دون أن يحمله باقة ورد

أو حزمة من الأعشاب العطرة ، أو يملأ جيبه بـالكرز والبرقوق لو كان هذا موسم الفاكهة .. »

اعتاد الطحان أن يقول :

ـ « يجب أن يشترك الأصدقاء الحقيقيون فيما يملكون .. »

فكان (هانز) يهز رأسه ويبتسم ويشعر بالفخر لأن له صديقاً يملك هذه الأفكار النبيلة .

وكان الجيران يندهشون أحياناً لأن الطحان الثرى لم يعط (هانز) شيئاً قط فى المقابل ، برغم أن عنده مائة جوال من الدقيق فى طاحونته ، وست بقرات وقطيع من الأغنام كثيرة الصوف ، لكن (هانز) لم يتعب نفسه بهذه الأمور ، ولم يسره شىء فى الدنيا إلا سماع صديقه يتكلم عن الصداقة .

ومر الصيف والخريف على (هانز) وجاء الشتاء ، عندها لم يجد ما يبيعه فى السوق ، وتألم كثيراً من الجوع والبرد ، وصار يأوى إلى فراشه دون أن يجد ما يأكله إلا بعض الكمثرى المجففة أو حفنة من

البندق .. كما أنه عانى الوحدة كثيراً لأن الطحان لم يزره قط .

اعتاد الطحان أن يقول لزوجته :

ـ « لاجدوى من أن أزور (هانز) ما دام الجليد مستمراً ، لأنه حين يقع الناس فى مشاكل فمن الخير تركهم وشأنهم وعدم مضايقتهم بالزيارات .. هذه هى فكرتى عن الصداقة وأنا واثق من أنها صادقة ، لسوف أزوره فى الربيع ولسوف يعطينى سلة من الزهور ، وهذا سيجعله سعيداً .. »

قالت الزوجة وهى مسترخية فى مقعدها جوار النار :

ـ « بالتأكيد أنت تفكر بالآخرين كثيراً .. تعرف عن الصداقة أكثر مما يعرفه القس نفسه .. »

تساءل ابن الطحان الأصغر :

ـ « لكن ألا يمكننا دعوة (هانز) إلى هنا ؟ لو كان جائعاً سأعطيه نصف نصيبى من العصيدة ، وأجعله يلعب مع أرانبى البيض .. »

صاح الطحان :

ـ « يالك من طفل سخيف ! حقًا لا أفهم جدوى إرسالك إلى المدرسة ، لو جاء (هانز) هنا ورأى عشاءنا الدسم ونارنا الدافئة ، فسوف يغار .. والحسد شيء شنيع يفسد طبيعة الإنسان ، ثم ربما لو جاء هنا لطلب منى بعض الدقيق نسيئة وليس هذا بوسعى ، الدقيق شيء والصداقة شيء آخر ، ألا ترى إن الكلمتين مختلفتان وكلتاهما تعنى شيئا مختلفا ؟ بوسع كل إنسان أن يرى هذا ! »

قالت الزوجة :

ـ « أحسنت الكلام .. »

ـ « أكثر الناس يستطيعون العمل جيدًا ، لكن قليلين منهم يستطيعون الكلام الجيد .. مما يريك أن الكلام هو الأكثر صعوبة .. »

ونظر إلى ابنه الصغير ، الذى شعر بالخجل من نفسه فطأطأ رأسه واحمر وجهه .. لكن سنه صغيرة إلى حد أنك تستطيع أن تسامحه ..

هنا تساءل فأر الماء :

ـ « هل هذه نهاية القصة ؟ »

قال الطائر :

ـ « بالطبع لا .. بل هى البداية .. »

ـ « إذن أنت متأخر على العصر .. كل راو بارع للقصص اليوم يجب أن يبدأ القصة من نهايتها ثم يأتى لنهايتها وينهيها فى وسطها ، لقد سمعت هذا الكلام من قاص كان يمشى جوار الماء مع ناقد .. لابد أن الرجل كان محقا فقد كان أصلع الرأس يضع نظارة سوداء .. لكن استمر فى القصة فأنا معجب بالطحان ، إن التفاهم بيننا شديد .. »

قال الطائر وهو يتواثب من ساق لأخرى :

ـ « حسن .. انتهى الشتاء .. وقال الطحان لامرأته إنه سيذهب ليزور (هانز) الصغير .. »

قالت الزوجة :

ـ « أنت دائم التفكير بالآخرين .. لاتنس أن تأخذ معك السلة من أجل الورود .. »

قال الطحان :

ـ « صباح الخير يا (هانز) .. »

قال (هانز) وهو يتوكأ على الرفش ، ويبتسم ابتسامة عريضة :

ـ « صباح الخير .. »

ـ « كيف كان حالك طيلة الشتاء ؟ »

ـ « جميل منك أن تسأل .. يؤسفنى أنه كان وقتًا قاسيًا ، لكن الربيع عاد وأنا سعيد الآن .. وزهورى فى خير حال .. »

قال الطحان :

ـ « كنا نتكلم عنك طيلة الشتاء ، ويسرنى أنك تغلبت عليه .. »

قال (هانز) :

ـ « هذا كرم منك .. كنت خائفًا من أن تكون نسيت أمرى .. »

ـ « الصداقة لاتنسى أبدًا يا (هانز) .. يؤسفنى أنك لاتعنى مفهوم الصداقة .. وبالمناسبة لاحظت أن زهورك جميلة جدًا .. »

ـ « بالفعل هى كذلك .. ولسوف آخذها إلى السوق وأبيعها وأسترد بثمنها عربة اليد الخاصة بى .. »

ـ « تسترد عربة اليد ؟ لاتقل إنك بعتها .. هذا أغبى شىء فعلته فى حياتك .. »

قال (هانز) :

ـ « الحقيقة هى أننى كنت مرغمًا على هذا .. لقد كان الشتاء عسيرًا علىّ .. ولم يكن لدىَ مال أبتاع به الخبز .. لذا بعت الأزرار الفضية لسترة الأحد ، ثم بعت سلسلتى الفضية .. ثم بعت غليونى الكبير وفى النهاية عربة اليد .. لكننى سأستردها جميعًا الآن .. »

قال الطحان :

ـ « (هانز) .. سأعطيك عربة اليد الخاصة بى .. ليست فى حال ممتازة .. فثمة جانب غير موجود

وشىء خطأ فى العجلات ، لكن برغم هذا سأعطيك إياها ، أعرف أن هذا كرم مبالغ فيه منى ، ولسوف يعتقد الكثيرون من الناس أننى أحمق ، لكننى لست كباقى العالم .. أعتقد أن الكرم هو أساس الصداقة وروحها .. ثم إن عندى عربة يد .. »

قال (هانز) ووجهه الباسم يتألق بالسعادة :

ـ « حسن .. هذا كرم منك .. يمكننى إصلاحها بسهولة فلدى خشب كثير فى البيت ..

قال الطحان .. »

ـ « خشب كثير !! هذا ما أبغيه لسطح مخزن الحبوب عندى ، هناك ثقب كبير فيه ولسوف يبتل القمح ما لم أسده الآن . من الملحوظ أن العمل الطيب يلد عملاً طيبًا آخر . أعطيتك عربة اليد فأعطنى الخشب .. بالطبع عربة اليد تساوى أكثر من الخشب بكثير لكن الصداقة لاتبالى بأمور كهذه ، من فضلك هات الخشب سريعًا ولسوف أبدأ العمل اليوم .. »

جرى (هانز) إلى المنزل وأخرج الخشب .

قال الطحان :

ـ « ليس خشبًا كثيرًا .. وأخشى أنه بعد أن أصلح سقفى لن يبقى لك ما يكفى لإصلاح العربة ، لكن هذا بالتأكيد ليس خطئى . والآن وقد أعطيتك عربتى فإننى أرغب فى أن تعطينى بعض الزهور مقابلها ، ها هى ذى السلة وأرغب فى أن تملأها .. »

ـ « أملؤها ؟ »

قالها (هانز) فى أسف لأن السلة كانت كبيرة جدًا .. ولو فعل هذا فلن يبقى من الزهور ما يكفيه كى يذهب للسوق ، وهو كان شديد الرغبة فى استرداد أزراره الفضية .

ثم إنه صاح :

ـ « أيها الصديق العزيز .. يا أعز صديق .. كل الزهور فى حديقتى تحت أمرك .. إننى لأفضل آراءك الحكيمة على أزرارى الفضية .. »

وجرى ليملأ سلة الطحان بالزهور .

قال الطحان :

ـ « وداعًا يا (هانز) .. »



وهو يحمل سلة الزهور فى يد والخشب فى اليد الأخرى .

فى اليوم التالى كان (هانز) يثبت شجرة فى شرفته حين سمع الطحان يناديه من الطريق ، من ثم نزل على السلم وركض فى الحديقة .

كان الطحان يحمل جوالاً كبيراً من الدقيق على ظهره ويقول له :

ـ « عزيزى (هانز) .. هل يضايقك أن تحمل عنى جوال الدقيق هذا إلى السوق ؟ »

قال (هانز) :

ـ « آه .. أنا آسف .. لكنى مشغول جداً .. علىّ أن أثبت كل النباتات المتسلقة وأن أروى كل زهورى .. »

قال الطحان :

ـ « حقاً ؟ أحسب أنه مادمت أنوى إعطاءك عربة يدى ، فإنه من الفظاظة منك أن ترفض .. »

صاح (هانز) :

ـ « لاتقل هذا .. لن أكون فظًا أبدًا .. »

وجرى ليحمل الجوال الكبير على ظهره .

كان اليوم حارًا جدًا والطريق مغبرًا ، وقبل أن يبلغ (هانز) علامة الطريق السادسة اضطر إلى الجلوس للراحة ، فى النهاية بلغ السوق وباع الدقيق بثمن ممتاز ثم قرر العودة ، لأنه خشى إن هو استراح قليلاً أن يلقى بعض اللصوص .

قال لنفسه وهو يدخل الفراش :

ـ « كان هذا بالتأكيد يومًا شاقًا ، لكنى مسرور لأننى لم أخذل الطحان لأنه أفضل أصدقائى .. بالإضافة لهذا سوف يعطينى عربة يده .. »

فى الصباح الباكر جاء الطحان ليأخذ ماله لكن (هانز) كان متعبًا ولم يغادر الفراش بعد ..

قال الطحان :

ـ « أقسم بالله إنك لشديد الكسل .. إن الخمول خطيئة

عظمى .. وأنا أكره أن أرى أعز صديق لى خاملاً .. لاتتضايق من أن أكلمك بهذه الصراحة .. لكن ماجدوى الصداقة إن لم يقل المرء بالضبط مايريده ؟ كل إنسان يمكن أن يقول كلامًا حلوًا يسرك ، لكن الصديق هو الذى لايبالى لو تكلم بقسوة وآذاك .. »

قال (هانز) وهو يدعك عينيه وينهض :

ـ « أنا آسف حقًا لكنى كنت متعبًا جدًا وأردت أن أظل فى الفراش بعض الوقت أصغى للطيور .. هل تعلم أننى أعمل أفضل إذا استمعت لصوت الطيور أولاً ؟ »

ربت الطحان على ظهر (هانز) وقال :

ـ « حسن .. يسرنى هذا .. لأننى أرغب فى أن تأتى لطاحونتى ما إن ترتدى ثيابك كى تصلح السقف لى .. »

كان (هانز) المسكين مشتاقًا لفكرة أن يعمل فى حديقته ، لأن زهوره لم تسق منذ يومين ، لكنه لم

يرغب فى أن يرفض طلب الطحان لأنه كان صديقًا عزيزًا .

تساءل فى خجل :

ـ « هل تعتقد أنه سيكون فظاظة منى لو قلت إننى مشغول ؟ »

أجاب الطحان :

ـ « حسن .. لا أحسب أننى أطلب منك الكثير خاصة لو فكرت أننى سأعطيك عربة يدى .. لكن بالطبع لو رفضت سأذهب وأعمل هذا بنفسى .. »

صاح (هانز) :

ـ « لا ! بأى ثمن لا .. »

ووثب من الفراش وارتدى ثيابه واتجه إلى مخزن الحبوب .

ظل يعمل هناك حتى الغروب ، وعندها جاء الطحان ليرى ما يحدث .

صاح الطحان فى سرور :

ـ « هل أصلحت الثقب يا (هانز) ؟ »

ـ « أصلحته تمامًا .. »

ـ « أوه .. ليس هناك من عمل أكثر بهجة من أن تعمل للآخرين .. »

أجاب (هانز) :

ـ « إنه امتياز حقيقى أن أسمعك تتحدث .. »

وجلس وراح يمسح جبينه :

ـ « لكننى أخشى أننى لن أرزق أبدًا بأفكارك العظيمة .. »

قال الطحان :

ـ « أوه .. ستجىء لك .. لكن يجب أن تعانى أكثر وأكثر .. أنت الآن تمارس الصداقة لكن يومًا ما ستفهم النظرية نفسها .. »

ـ « هل تعتقد أنى سأفعل ؟ »

– « لاشك فى هـذا .. لكن عليك الآن أن تقصد دارك وتستريح ، لأننى سأسألك أن تأخذ أغنامى إلى الجبل غدًا .. »

خاف (هانز) البائس من الاعتراض ، وفى الصباح الباكر أحضر الطحان غنمه إلى الكوخ ، واستغرق (هانز) اليوم بأكمله كى يأخذ الأغنام إلى الجبل ويعود بها ، وحين عاد كان منهكًا لدرجة أنه نام فى مقعده ، ولم يصح إلا فى منتصف النهار .

قال وهو يعود للعمل :

– « يا للوقت السعيد الذى سأقضيه فى حديقتى ! »

لكنه لم يستطع قط العناية بأزهاره ، لكنه كان دومًا يطلب منه أو يرسله فى مهمات طويلة . وخاف (هانز) أن تحسبه الزهور قد نسى أمرها ، لكنه عزى نفسه بأن الطحان أفضل أصدقائه ، ثم إنه سيعيره عربة يده وهذا كرم لاحد له .

لذا ظل (هانز) يعمل لدى الطحان ، والطحان يقول

أجمل الأشياء عن الصداقة ، تلك التى كان (هانز) يدونها فى مفكرته ويقرؤها قبل النوم لأنه كان مولعًا بالدراسة .

ذات ليلة كان (هانز) جالسًا جوار المدفأة حين دق الباب بقوة ، كانت ليلة عاصفة والريح تزأر حول البيت ، لذا حسب أنها العاصفة ، لكن دقة أخرى جاءت ثم ثالثة أعلى ، جرى للباب يفتحه فوجد الطحان يقف ومصباح فى يده ، وعصا فى اليد الأخرى .

صاح الطحان :

– « وا عزيزى (هانز) .. إن ابنى الصغير قد سقط من فوق السلم وجرح نفسه وعلىّ الذهاب للطبيب .. لكنه يعيش بعيدًا ، وخطر لى أنه من الأفضل لو ذهبت أنت .. فأنا كما تعرف سأعطيك عربة يدى ومن العدل أن تفعل شيئًا فى المقابل .. »

صاح (هانز) :

– « بالطبع .. سأنطلق حالاً .. لكن يجب أن تعطينى

المصباح لأن الظلام دامس ، وأنا أخشى السقوط فى خندق .. »

قال الطحان :

ـ « أنا آسف .. لكنه جديد ومن الخسارة أن يحدث له شيء .. »

ـ « حسن .. لا عليك .. سأتصرف من دونه .. »

وتناول عباءته ومعطفه الفراء الكبير ، وانطلق .

يا للعاصفة المريعة ! كان الظلام دامسًا إلى حد أن (هانز) لم يكن يرى شيئًا .. وبعد ثلاث ساعات وصل إلى بيت الطبيب ودق الباب ، أخرج الطبيب رأسه من نافذة غرفة النوم :

ـ « من هذا ؟ »

ـ « أنا (هانز) أيها الطبيب .. لقد سقط ابن الطحان الصغير من فوق السلم وجرح نفسه .. والطحان يرغب فى مجيئك .. »

قال الطبيب :

ـ « حسن أنا قادم .. »

وأمر بجواده والحذاء ذى الرقبة والمصباح ، وانطلق فى اتجاه بيت الطحان بينما (هانز) يركض من خلفه .

لكن العاصفة ازدادت سوءًا وهطل المطر ، لم يعد (هانز) يرى شيئًا ، وفى النهاية ضلّ طريقه إلى المستنقع ، وقد كان مكانًا خطرًا وهناك غرق (هانز) المسكين ، وجد رعاة الغنم جسده فى اليوم التالى ، وهو طافٍ فوق بركة ما ، وأعاده القوم إلى داره .

ذهب الجميع إلى جنازة (هانز) لأن الكل كان يحبه ، وكان الطحان أول النائحين .

ـ « كنت أعز صديق له ولهذا يجب أن آخذ أفضل مكان .. »

ومشى أمام الموكب فى عباءته السوداء ، ومن حين لآخر يمسح دموعه بمنديله الكبير .

- « إن (هانز) خسارة على أى قياس .. لقد منحته عربة يدى والآن لم أعد أعرف ما أفعله بها .. إنها فى حالة سيئة إلى حد أننى لن أحصل على مليم لو بعتها .. يجب ألا أمنح أى شىء من حاجياتى بعد اليوم .. إن المرء يتحمل دومًا متاعب أن يكون كريمًا .. »

* * *

قال الفأر بعد صمت طال :

- « حسن ؟ »

قال الطائر :

- « حسن هذه نهاية القصة .. »

- « وماذا حدث للطحان ؟ »

- « أوه لاأعرف .. ومن المؤكد أن هذا لايهمنى .. أخشى أنك لاتفهم المغزى الأخلاقى لهذه القصة .. »

صاح فأر الماء :

- « ماذا ؟ »

- « المغزى الأخلاقى .. »

- « هل تعنى أن القصة لها مغزى أخلاقى ؟ »

- « بالتأكيد .. »

قال فأر الماء فى غضب :

- « كان يجب أن تخبرنى قبل البدء .. وإلا ماكنت أصغيت لك .. كان لابد أن أقول (بووووه)(*) كما يفعل النقاد .. لكن يمكن أن أفعل هذا الآن .. »

وأطلق صيحة (بوووووه) عالية ، ثم انطلق عائدًا إلى بيته .

سألت البطة التى جاءت تجدف عبر الماء :

- « هل تحب فأر الماء ؟ إن لديه مزايا .. لكن

(*) علامة تدل على عدم الاستحسان .. وتعتبر هى والصفير تعبيرًا على أن المسرحية غير جيدة ..

بالنسبة لى كلم لا أستطيع النظر إلى شخص عزب دون أن تتجمع الدموع فى عينى .. »

قال الطائر :

ـ « أخشى أننى ضايقته .. الحقيقة هى أننى حكيت له قصة ذات مغزى أخلاقى .. »

قالت البطة :

ـ « أوه .. من الخطر دائمًا أن تفعل شيئًا كهذا .. »

وأنا أوافقها تمامًا على ذلك .

* * *

الصاروخ المرموق ..

كان ابن الملك مقبلاً على الزواج ، لذا كانت هناك احتفالات عامة .. لقد انتظر عروسه عامًا كاملاً وقد وصلت أخيرًا . كانت أميرة روسية جاءت من فنلندا على زحافة تجرها ستة من حيوانات الرنة . كانت الزحافة تشبه بجعة ذهبية عملاقة ، وبين الجناحين كانت الأميرة ذاتها . وكانت عباءتها الفرائية تصل إلى قدميها وعلى رأسها تاج من الفضة .. وكانت شاحبة مثل قصر الجليد الذى تربت فيه .. شاحبة كانت إلى حد أن الناس تصايحوا فى الشوارع :

ـ « إنها تبدو كوردة بيضاء ! »

وراحوا يلقون عليها الزهور من الشرفات .

وعند باب القلعة كان الأمير ينتظر لاستقبالها . كانت له عينان حالمتان بنفسجيتان وشعره كخيوط الذهب ، وحين رآها ركع على ركبته ولثم يدها . وغمغم :

ـ « صورتك كانت جميلة لكنك أجمل منها »

فاحمر وجه الأميرة الصغيرة . وقال وصيف لجاره :

ـ « كانت من قبل كالوردة البيضاء ، والآن هى وردة حمراء .. »

فسر البلاط كله لهذا .

ولمدة ثلاثة أيام راح البلاط يردد :

ـ « الوردة الحمراء .. الوردة الحمراء .. الوردة الحمراء .. الوردة البيضاء .. »

وطلب الملك أن يضاعف راتب الوصيف ، ولما كان هذا لايتقاضى أى راتب فلم يفد شيئاً من القرار ، لكنه كان شرفاً عظيماً .

حين انتهت الأيام الثلاثة تم الاحتفال بالزفاف . كان حفلاً مذهلاً . ومشى العريس والعروس تحت مظلة من المخمل المزين باللآلئ . ثم أقيمت المآدب لمدة خمس ساعات .

قال الوصيف :

ـ « من الواضح أنهما يحبان بعضهما .. هذا واضح كالبلور .. »

من ثم ضاعف ابن الملك راتبه من جديد . فصاح القوم فى البلاط :

ـ « يا له من شرف !! »

بعد المأدبة كان حفل راقص . سيرقص العروسان معاً رقصة الوردة ، وقد وعد الملك بأن يعزف الناى لهما . كان عزفه غاية فى السوء ، لكن أحداً لم يجسر بالطبع على إخباره بهذا لأنه الملك . أما آخر فقرات البرنامج فكانت عرضاً شائقاً للألعاب النارية سيتم فى منتصف الليل . لم تر الأميرة ألعاباً نارية فى حياتها ، لذا أمر الملك بأن يكون خبير الألعاب النارية الملكى موجوداً يوم الزفاف .

سألت الأميرة :

ـ « ما هى الألعاب النارية ؟ »

قال الملك :

ـ « إنها مثل الشفق القطبى (أورورا) .. »

كان الملك يحب أن يجيب عن الأسئلة الموجهة لسواه . وأضاف :

ـ « فقط أكثر طبيعية .. إننى أفضلها على النجوم ذاتها .. لأنك تعرفين متى سترينها بالضبط ، وهى أكثر جمالاً من عزفى على الناى .. يجب أن تريها قطعًا .. »

وهكذا أقيمت منصة كبيرة فى حديقة الملك ، وبدأت الألعاب النارية تتكلم مع بعضها .

قالت مفرقعة صغيرة :

ـ « إن العالم بالتأكيد رائع الجمال .. انظر إلى زهور التيوليب هذه .. لو أنها كانت مفرقعات لما كانت أجمل من هذا .. »

قالت مفرقعة ضخمة من النوع المدعو (شمعة رومانية) :

ـ « إن حديقة الملك ليست هى العالم . إن العالم مكان هائل الاتساع .. ولسوف تحتاجين إلى ثلاثة أيام لتريه كله .. »

قالت مفرقعة من النوع المعروف باسم (دولاب كاترين) :

ـ « أى مكان تحبه هو العالم بالنسبة لك .. لكن الحب لم يعد (موضة) .. لقد قتله الشعراء . كتبوا عنه الكثير جدًا حتى لم يعد أحد يصدقهم .. ولا يدهشنى هذا . إن طبيعة الحب هى العذاب والصمت .. عرفت الحب قديمًا وانتهى الأمر .. لقد صار هذا كله ينتمى للماضى .. »

قالت الشمعة الرومانية :

ـ « هراء !! الرومانسية لاتموت أبدًا . إنها كالقمر تحيا أبدًا .. والعريس والعروس يحبان بعضهما وقد أخبرنى بهذا خرطوش مفرقعات يعرف أسرار البلاط .. »

قالت (دولاب كاترين) :

ـ « الرومانسية ماتت .. الرومانسية ماتت .. الرومانسية ماتت .. »

كانت من طراز الناس الذين يحسبون أنك لو كررت الكلمة مرارًا فإنها تصبح حقيقة فى النهاية .

هنا سمعا سعلة جافة فنظرا إلى ما حولهما .

جاءت من صاروخ طويل له منظر متكبر ، مربوط إلى عصا ، وقد اعتاد أن يسعل قبل أن يقول أية ملحوظة حتى يجذب الانتباه .

ـ « احم احم .. »

فانتبه الجميع ما عدا (دولاب كاترين) التى مازالت تهز رأسها وتردد :

ـ « الرومانسية ماتت .. الرومانسية ماتت .. الرومانسية ماتت .. »

صاح صاروخ صغير :

ـ « النظام .. النظام ! »

كان متمرسًا بالسياسة لأنه شارك فى مناسبات عديدة ، وكان ذا دراية بالقواعد البرلمانية إلى حد ما ..

فما إن ساد الصمت حتى سعل الصاروخ العظيم ثانية ، وتكلم بصوت خفيض واضح وكأنما يملى مذكراته . فى الحقيقة كان أسلوبه متميزًا جدًا . قال :

ـ « من حسن حظ ابن الملك أنه سيتزوج فى ذات اليوم الذى سأنطلق أنا فيه . حقًا لو تم ترتيب الأمر من قبل لما كان أفضل . لكن الأمراء مجدودو الحظ دومًا .. »

قالت المفرقعة :

ـ « رباه ! كنت أحسب الأمر عكس هذا ، وأننا سننطلق على شرف الأمير .. »

ـ « ربما كان الأمر كذلك بالنسبة لك .. أنا متأكد من هذا ، لكن بالنسبة لى الأمر مختلف .. أنا صاروخ مرموق أتيت من أسرة مرموقة .. كانت أمى أشهر (دولاب كاترين) فى عهدها .. حين ظهرت للجماهير أول

مرة دارت فى الفضاء تسع عشرة مرة قبل أن تنطفئ .. وفى كل دورة تنثر حولها فى الفضاء سبع نجوم .. كان طولها ثلاثة أقدام ، ومن خير أنواع البارود .. كان أبى صاروخاً مثلى من أصل فرنسى . كان يحلق عالياً حتى يحسب الناس أنه لن يعود ثانية ، لكنه كان يهبط لأنه كان ذا طبع متواضع . وقد كتبت الصحف عنه منبهرة ، وأطلقوا عليه : النصر الجديد فى عالم الأرعاب النارية .. »

قال له (ضوء بنغالى) :

ـ « ألعاب نارية) .. لقد قرأت هذه الكلمة على علبتى .. »

قال الصاروخ فى صرامة :

ـ « بل (أرعاب نارية) .. »

شعر (الضوء البنغالى) بأنه يتهشم لدرجة أنه راح يستفز المفرقعات الصغيرة كى يريها أنه مازال شخصاً ذا قيمة . وواصل الصاروخ الكلام :

ـ « ماذا كنت أقول ؟ »

قالت (الشمعة الرومانتية) :

ـ « كنت تتكلم عن نفسك .. »

ـ « نعم .. كنت أناقش موضوعاً مهماً حين قوطعت بقلة ذوق ، وأنا أكره قلة الذوق لأننى شديد الحساسية .. لا أحد فى العالم حساس مثلى وأنا أثق بهذا .. »

سأل أحد المفرقعات الشمعة الرومانتية :

ـ « ما معنى (حساس) ؟ »

ـ « الشخص الذى لأنه يعانى من (كاللو) فى قدمه ، يدوس طيلة الوقت على أصابع أقدام الآخرين .. »

وعاد الصاروخ يتكلم :

ـ « على المرء أن يفكر فى الآخرين .. بالذات يفكر فى أنا .. أنا أفكر فى نفسى طيلة الوقت وأتوقع من الآخرين أن يفعلوا الشىء ذاته .. لهذا ندعو الأمر باسم (التعاطف) .. إنها فضيلة رائعة وأنا أملك الكثير منها . تصوروا لو حدث لى شىء الليلة .. كم هى

خسارة ! لن يسعد الأمير والأميرة ، ولسوف يتحطم زواجهما .. أما الملك فلن يتغلب على الصدمة أبدًا . حين أفكر فى أمسيتى أوشك على البكاء .. »

- « هذه مسألة فهم مشترك .. »

قال الصاروخ فى كبرياء :

- « يمكن لأى واحد أن يملك الفهم المشترك .. لأنه ليس لديهم خيال . لكننى أملك الخيال ولا أفكر فى الأشياء كما هى، ولكن أراها بصورة مختلفة . على المرء أن يفهم مدى حقارة وتدنى مرتبة الآخرين ، وهذا هو مايبقيك حيًا . بدلاً من هذا أنتم تضحكون وتصخبون كأنما الأمير والأميرة لم يتزوجا بعد .. »

تساءل بالون نار صغير :

- « حسن .. ولمَ لا ؟ إنها مناسبة سارة ، وحين أحلق فى السماء أزمع أن أخبر النجوم بكل شىء عنها .. سترى النجوم تزداد تألقًا حين أخبرها بالعروس الجميلة .. »

قال الصاروخ :

- « آه .. يالها من نظرة تافهة للحياة ! لكن هذا ماتوقعته .. ليس فيكم شىء .. أنتم فارغون من الداخل لربما يذهب الأمير والأميرة ليعيشا فى بلد فيه نهر عميق ، ولربما يكون لهما ابن .. ابن أشقر له عينا الأمير .. ولربما يخرج الطفل مع مربيته يومًا .. ولربما تنام المربية .. ولربما يسقط الطفل فى الماء ويغرق .. يالها من كارثة ! ما أتعس هذين البائسين ! لن أفيق من أحزانى أبدًا ! »

قالت الشمعة الرومانية :

- « لكنهما لم يفقدا ابنهما .. لم تصبهما كارثة على الإطلاق .. »

أجاب الصاروخ :

- « لم أقل إن هذا سيحدث .. قلت إنه قد يحدث .. لو فقدا ابنهما بالفعل فلا داعى للكلام .. أنا أكره الناس الذين يبكون على اللبن المسكوب ، لكن بما أن هذا قد يحدث فالقلق واجب .. أنتم لاتقدرون مدى صداقتى للأمير .. »

قالت الشمعة الرومانية :

ـ « كيف ؟ أنت حتى لاتعرفه »

ـ « لم أقل إننى اعرفه .. بل أجرؤ على القول إننى لو عرفته لما صادقته قط .. من الخطر جداً أن تعرف صديقك .. »

ثم انفجر فى بكاء حار .. فقالت (عجلة كاترين) :

ـ « بالتأكيد هو ذو طبيعة رومانسية حقيقية .. لأنه يبكى حيث لايوجد سبب على الإطلاق للبكاء .. »

وتنهدت تنهيدة حارة .

لكن الشمعة الرومانية ونار البنغال كانتا ساخطين وراحا يرددان :

ـ « همبكة ! همبكة ! »

لأنهما كانا ذوى طبيعة علمية ، وكانا يطلقان تعبير (همبكة) على كل من لايروق لهما .

ثم ارتفع القمر كدرع فضى ، وراحت النجوم تلمع .

وجاء صوت الموسيقا من القصر . كان الأمير والأميرة يقودان الرقص ، وكان رقصهما جميلاً حتى إن زهور السوسن راحت تميل على النوافذ لتراهما .

جاءت الساعة العاشرة ثم الحادية عشرة ثم الثانية عشرة . وعند الدقة الأخيرة خرج الجميع إلى الشرفة وأرسل الملك يستدعى خبير الألعاب النارية .

ـ « فلتبدأ الألعاب النارية .. »

قالها الملك فانحنى خبير الألعاب .. ومشى إلى الحديقة حيث كان ينتظره ستة من مساعديه ، يحمل كل منهم مشعلاً . كان العرض مبهراً .

ويز ويز ! انطلقت (دولاب كاترين) وهى تدور حول نفسها .. بوم بوم ! ثم انطلقت (الشمعة الرومانية) .. ثم راحت المفرقعات الصغيرة ترقص حول المكان . وجعل (ضوء البنغال) كل شىء يبدو قرمزيًا .

ـ « وداعًا ! »

صاح بالون النار وهو ينطلق . بانج بانج ! كانت هذه إجابة المفرقعات التى كانت تنعم بوقتها حقًا .



نجح الجميع مـا عدا الصـاروخ المرموق . كـانت الدموع قد بللته حتى إنه لم ينطلق على الإطلاق . كان أفضل ما فيه هو البارود ، وقـد تبلل هـذا تمامًا حتى لم يعد ذا قيمة .

كل رفاقه الذين لن يتكلم معهم ثانية ، قد حلقوا فى السماء كزهور ذهبية مبهرة ، وبراعم مـن نـار . وضحكت الأميرة من فرط السرور .

قال الصاروخ لنفسه :

ـ « أعتقد أنهم يحتفظون بى لحدث عظيم .. لاشك فيما يعنيه هذا .. »

وبدا أكثر صلفا من ذى قبل .

فى اليوم التالى جـاء العمـال لينظفوا كل شىء . فقال الصاروخ لنفسه :

ـ « هؤلاء بالتأكيد وفـد من الملك .. سـألقاهم بكبريـاء مناسبة .. »

وشمخ بأنفه فى الهواء وقطب جبينه كأنما يفكر فى أمر بالغ الأهمية . لكنهم لم يلاحظوه على الإطلاق حتى لحظة انصرافهم . رآه أحدهم فصاح :

ـ « يا له من صاروخ ردىء !! »

وألقاه من فوق السور إلى الخندق .

قال الصاروخ وهو يطير فى الهواء :

ـ « صاروخ ردىء ؟ مستحيل ! صاروخ رائع .. هذا هو ما قال الرجل .. إن (ردىء) و(رائع) لفظتان متشابهتان جدًا .. فى الحقيقة كثيرًا ما تعنيان الشىء ذاته .. »

وسقط فى الوحل .

قال :

ـ « المكان ليس مريحًا هنا .. لكن لاشك فى أنه منتجع مائى ، وقد أرسلونى هنا كى أجدد صحتى .. إن أعصابى مرهقة وأنا بحاجة إلى الراحة .. »

هنا سبح نحوه ضفدع له عينان لامعتان كالجواهر ومعطف أخضر مبرقش . وقال :

ـ « قادم جديد .. على كل حال ليس من شىء أفضل من الوحل .. أعطنى طقسًا مطيرًا وحفرة ، ولسوف أكون فى خير حال .. هل تظن السماء ستمطر عصر اليوم ؟ »

قال الصاروخ :

ـ « إحم إحم .. »

وبدأ يسعل . فقال الضفدع :

ـ « يالصوتك الجميل ! إنه يشبه النقيق والنقيق بالتأكيد أجمل صوت فى الكون .. ستسمع نادينا للغناء الجماعى هذه الليلة .. نجلس فى بركة البط فما إن يبزغ القمر حتى نبدأ .. إنه ساحر إلى حد أن الجميع يبقى ساهرًا ليسمعنا . من الجميل أن يعرف المرء أنه محبوب إلى هذا الحد .. »

قال الصاروخ :

ـ « إحم إحم .. »

كان غاضبًا إلى حد أنه لم يستطع التلفظ بكلمة .

فقال الضفدع :

ـ « صوت جميل فعلاً .. والآن أشكرك على هذه المحادثة الشائقة وأستودعك الله .. »

قال الصاروخ :

ـ « محادثة فعلاً .. أنت ظللت تتكلم طيلة الوقت وبرغم هذا تسميها محادثة .. »

قال الضفدع :

ـ « لابد من واحد يصغى ، وأنا أحب القيام بالكلام كله بنفسى .. هذا يوفر الوقت ويتحاشى المجادلات .. »

ـ « لكنى أحب المجادلات .. »

ـ « أتمنى أن لا .. إن المجادلات أمر سوقى ، لأن كل واحد فى المجتمعات الراقية يملك نفس الآراء .. والآن وداعًا .. »

قال الصاروخ :

ـ « أنت شخص مزعج سيئ التربية .. أنا أكره الناس الذين يتكلمون عن أنفسهم فى الوقت الذى أرغب فيه فى الكلام عن نفسى .. هذا ما أدعوه أنانية ، والأنانية شىء كريه للغاية .. خاصة مع شخص حساس مثلى .. لاتنس أننى المفضل فى البلاط الملكى ، والأمير والأميرة تزوجا أمس على شرفى .. طبعًا أنت لن تفهم هذه الأمور لأنك ريفى .. »

قالت ذبابة تنين تجلس على زهرة بردى كبيرة :

ـ « لاجدوى من الكلام معه لأنه قد رحل بالفعل .. »

قال الصاروخ :

ـ « ليكن .. هو الخاسر لا أنا .. لن أكف عن الكلام معه لأننى أحب سماع نفسى أتكلم .. أحيانًا أجرى محادثات طويلة مع نفسى ، ومن فرط ذكائى لا أفهم كلمة واحدة مما أقول .. »

قالت ذبابة التنين :

ـ « إذن يجب أن تلقى محاضرات فى الفلسفة .. »

وحلقت فى السماء .

قال الصاروخ :

ـ « من السخيف أنه لم يبق هنا .. لا أعتقد أن لديه فرصة كهذه ليريض عقله .. »

بعد قليل سبحت بطة بيضاء كبيرة بقربه . وكانت تعتبر جميلة جداً نظراً لمشيتها المتهادية . قالت :

ـ « كاك كاك ! ما أغرب شكلك ! هل لى أن أعرف ما إذا كنت ولدت هكذا أم أنها نتيجة حادث ؟ »

قال الصاروخ :

ـ « واضح تماما أنك قضيت حياتك فى الريف .. لكنى أغفر لك جهلك ليس من العدل أن أتوقع أن يكون الناس مرموقين مثلى .. لن تصدقى أن بوسعى التحليق فى السماء ثم النزول وسط شلال من المطر الذهبى .. »

قالت البطة :

ـ « هذا لايبهرنى لأننى لا أرى له نفعا .. لو كان بوسعك أن تحرث الحقول كالثور أو تجر عربة كالحصان لكان هذا شيئاً ما .. »

صاح الصاروخ فى عجرفة :

ـ « أيها المخلوق الطيب .. أرى أنك تنتمين إلى طبقات وضيعة .. أما الأشخاص من طبقتى فيندر أن يكونوا مفيدين .. ولطالما كان رأيى أن العمل هو الملاذ الأخير للأشخاص الذين ليس لديهم ما يفعلونه .. »

قالت البطة :

ـ « ليكن .. ليكن .. فقط أرجو أن تعيش معنا هنا .. »

كانت مسالمة بطبعها ولم تتشاجر قط مع مخلوق ..

صاح الصاروخ :

ـ « ياعزيزتى .. أنا مجرد زائر زائر مرموق .. لكن هذا المكان متعب .. فلا توجد مجتمعات هنا .. لكن الوحدة

صعبة المنال كذلك .. إنه مكان ريفى ، ويبدو أننى سأعود للبلاط لأن قدرى هو أن أحدث دويًا فى العالم .. لقد خلقت للحياة العامة .. »

قالت البطة :

ـ « هذا يذكرنى بأننى جائعة .. »

وسبحت عبر النهر وهى تردد :

ـ « كاك كاك كاك ! »

قال الصاروخ لنفسه :

ـ « يسرنى أنها رحلت .. إن لها عقلية واحدة من الطبقة المتوسطة .. »

وغاص أكثر فى الوحل ، وهو يفكر فى وحشة العباقرة ووحدتهم .. حين ظهر صبيان فى معطفين أبيضين ، يجريان على الضفة ومعهما حزمة عصى وإبريق شاى .

صاح أحد الصبيين :

ـ « انظر إلى هذه العصا القديمة ؟ »

ـ « ترى من أين جاءت ؟ »

ومد يده إلى الوحل .

صاح الصاروخ :

ـ « عصا قديمة ؟ مستحيل .. لابد أنه قال (عصا ثمينة) .. هذا يرضينى جدًا .. »

قال الولد الآخر :

ـ « دعنا نشعل فيها النار .. ستساعدنا على غلى الماء فى البراد .. »

لهذا كوموا العصى معًا ، ثم وضعوا الصاروخ أعلى الكومة .

صاح الصاروخ :

ـ « هذا رائع .. سيطلقاننى فى النهار حتى يرانى الجميع .. »

قالا :

ـ « سننام الآن .. وحين نصحو سيكون الماء قد غلى .. »

وتمددا على العشب وأغمضا العيون .

كان الصاروخ مبتلاً واستغرق الكثير من الوقت ليشتعل ، وفى النهاية أمسكت به النار فصاح :

ـ « الآن سأنطلق !! أعرف أننى سأنطلق أبعد من النجوم ومن القمر .. أعلى من الشمس .. فى الحقيقة سأرتفع لدرجة .. »

فيز .. فيز ! وحلق فى الهواء ..

ـ « جميل .. سأحلق هكذا للأبد ! يا للتجاحى ! »

ثم بدأ يشعر بشعور تنميل غريب على جسده . فصاح :

ـ « الآن سأنفجر ! سأشعل النار فى العالم كله .. وأحدث صخبًا حتى إن أحدًا لن يتكلم عن شىء آخر لمدة عام .. »

وبالفعل انفجر .. بانج .. بانج .. انطلق البارود .. لاشك فى هذا ..

لكن أحدًا لم يسمعه ولم يره .. حتى الصبيين كانا نائمين . ثم لم يبق منه إلا عصا وقد سقطت هذه على ظهر أوزة كانت تمشى جوار الخندق .

قالت :

ـ « رباه ! السماء ستمطر عصيًا .. »

وجرت إلى البركة .

لهث الصاروخ وقال :

ـ « كنت أعرف أننى سأحدث دويًا عظيمًا .. »

ثم تلاشى .

* * *

طفل النجوم ..

كان ياماكان . عاد حطابان فقيران إلى دارهما عبر غابة صنوبر واسعة . كان الطقس شتاء والليلة قاسية البرد والجليد فى كل صوب لأن ملك الثلوج لثم كل شىء .

زمجر الذئب وهو يعرج بين الأشجار المتجمدة :

ـ « أوه .. هذا بالتأكيد طقس متوحش .. لماذا لاتهتم الحكومة بأمر كهذا ؟ »

صاحت الطيور :

ـ « تويت تويت ! الأرض العجوز قد ماتت وغطوها بأكفان بيضاء .. »

قالت الحمائم لبعضها :

ـ « بل الأرض ستتزوج وهذا ثوب عرسها .. »

لقد عانت أقدامها الوردية من قضمة الصقيع فشعرن بالحاجة إلى بعض الرومانسية .

زمجر الذئب :

ـ « هراء ! إننى أؤكد لكم أن هذه غلطة الحكومة ، وإن لم تقتنعوا فإننى سألتهمكم .. »

كان الذئب ذا عقلية عملية ولم يخسر مجادلة قط .

قال نقار الخشب الذى كان ذا طبيعة فلسفية :

ـ « حسن .. بالنسبة لى أنا لا أبالى بالتفسيرات .. مادام الشىء كذا فهو كذا .. وحاليًا البرد شديد .. »

حقًا كان البرد شديدًا ، وقد مضى الحطابان ينفخان فى أناملهما ويتعثران بأحذيتهما الثقيلة فوق الجليد وتعثرا مرة فى المستنقع المتجمد ومرة فى حفرة ، خرجا منها أكثر بياضًا من الطحان فى أثناء طحن الحبوب . وذات مرة حسبا أنهما ضلا الطريق ، وانتابهما الهلع لأنهما يعرفان أن الصقيع لايرحم من يغفو بين ذراعيه . لكنهما استعادا الطريق .. وفى النهاية بلغا

حدود الغابة .. ورأيا أضواء قريتهما . بلغت بهما السعادة مبلغًا حتى راحا يضحكان بصوت عال ، وخيل لهما أن الأرض مكسوة بالفضة والقمر زهرة من الذهب . ثم عاد إليهما الحزن وقد تذكرا فقرهما . وقال أحدهما :

ـ « لماذا نفرح ونحن نعرف أن الحياة للأثرياء وليست لأمثالنا ؟ كان من الأفضل لنا لو متنا من البرد فى الغابة .. أو وثب علينا وحش فتك بنا .. »

قال صاحبه :

ـ « حقًا .. القليلون ينالون الكثير والباقون ينالون القليل .. إن الظلم قد غلف العالم ، ولا عدالة فى توزيع شىء إلا الألم .. »

لكن بينما هما يتبادلان شكوى التعاسة ، حدث هذا الشىء الغريب . لقد هبط من السماء نجم شديد البريق . مر منحدرًا من أعلى مارًا بكل النجوم الأخرى ، ثم هبط وراء مجموعة من أشجار الصفصاف على مرمى حجر منهما .

صاحا :

ـ « هيه ! هناك ذهب لمن يجده !! »

وانطلقا متحمسين .. كان أحدهما أسرع من صاحبه حتى سبقه ، وشق طريقه بين أشجار الصفصاف . وخرج من الناحية الأخرى . حقًا كان شىء من ذهب على الجليد .

جرى وأمسكه بيديه .. كانت عباءة من نسيج مذهب مطرز بالنجوم بعناية . صاح يخبر صديقه أنه وجد الكنز الذى سقط من السماء ، وحين وصل صاحبه جلسا على الجليد وفكا ثنيات العباءة ..

لكن للأسف ! لم يكن هناك ذهب ولا فضة .. ولا أى كنز من أى نوع . لكن كان فى العباءة طفل صغير نائم . وقال أحدهما للآخر :

ـ « هذه نهاية مريرة لآمالنا .. ماجدوى طفل للرجل ؟ إن أطفالنا هناك وليس لدينا المزيد من الخبز نمنحه لطفل آخر .. ألا فلنتركه هنا ونمض إلى سبيلنا .. »

لكن رفيقه قال :

ـ « لا .. من الشر أن نترك طفلاً يموت هنا فى البرد .. وبرغم أننى فقير مثلك ، ولدى أفواه كثيرة يجب إطعامها .. والقليل من الطعام فى القدر .. فإننى سآخذ هذا الطفل معى إلى الكوخ ، ولسوف تعنى به زوجتى .. »

ولهذا وبرفق أخذ الطفل .. ولفه فى العباءة كى يقيه من البرد . بينما زميله يتعجب من حماقته ورقة قلبه . وقال له :

ـ « أنت أخذت الطفل فأعطنى العباءة .. هكذا نتقاسم ما وجدناه .. »

لكن صاحبه أجابه :

ـ « لا .. فالعباءة ليست لى ولا لك .. بل هى ملك الطفل .. »

وودعه واتجه إلى داره . ففتحت له زوجته الباب ، فلما رأت أن زوجها عاد سالما لها طوقت عنقه وقبلته . ثم اقتادته إلى جوار النار . قال لها :

ـ « لقد وجدت شيئاً فى الغابة وقد جلبته لك كى تعنى به .. »

ثم كشف العباءة ليريها الطفل ، وقال لها :

ـ « هو طفل النجوم .. »

وحكى لها القصة الغريبة للعثور على هذا الطفل ، لكنها لم تهدأ .. بل سخرت منه .. وصاحت فى غضب :

ـ « أطفالنا يفتقرون إلى الخبز فهل نطعم طفل الآخرين ؟ من يعنى بنا ومن يعطينا الطعام ؟ »

ـ « لكن الله يعنى حتى بالعصافير ويطعمها .. »

ـ « لكن ألا تموت العصافير جوعا فى الشتاء ؟ وأليس هذا هو الشتاء ؟ »

هنا هبت ريح باردة من الغابة فارتجفت وقالت لزوجها :

ـ « ألا تغلق الباب ؟ إن الريح تجمدنى .. »

اتجه الرجل نحوها ووضع الطفل بين ذراعيها ، فارتجفت وسالت دمعة من عينها .. وقبلته ووضعته فى الفراش جوار أصغر أبنائها ..

فى الصباح أخذ الحطاب العباءة الغريبة ووضعها فى صندوق كبير ، ووضعت الزوجة قلادة من الكهرمان كانت حول عنق الطفل فى الصندوق كذلك .

هكذا كبر طفل النجوم مع أبناء الحطاب ولعب معهم . وفى كل عام يزداد جمالاً مما أثار دهشة القرويين .. فقد كانوا داكنى البشرة سود الشعور .. وكان هو رقيقًا وأبيض كالعاج ، وخصلات شعره المجعدة كزهور النرجس الأصفر . وعيناه كزهور البنفسج فى حقل لا يزوره قاطع الأعشاب .

لكن جماله آذاه لأنه صار مغرورًا .. أنانيًا .. قاسيًا ، وراح يقول إن أطفال القرية منحطون أما هو فنبيل المنشأ لأنه جاء من النجوم . لم يعطف قط على الفقراء أو المشوهين أو المرضى . واعتاد السخرية من المتسولين ، كأنما حرم القلب .

وفى الصيف حين تهدأ الريح ، كان يرقد عند البئر ، ويتأمل روعة وجهه فى الماء .

وكان الحطاب وامرأته يقولان له :

ـ « لم نتعامل معك كما تعاملت مع الفقراء المنسيين .. من أين جئت بهذه القسوة وافتقارك للرحمة .. »

لكنه لم يهتم بهما .. وواصل اللهو والعبث مع رفاقه . وحين كان يغرس قصبة فى عين الخلد التى لا تبصر كانوا يضحكون .. وحين كان يلقى الأحجار على المجذومين كانوا يضحكون . كان يسيطر عليهم إلى حد أنهم صاروا قساة القلوب مثله .

ذات يوم مرت بالقرية امرأة متسولة بائسة .. ثيابها ممزقة وقدماها تنزفان من الطريق الخشن الذى مشت عليه . ولما كانت مرهقة فقد جلست تحت شجرة كستناء تستريح .

لكن حين رآها طفل النجوم قال لرفاقه :

ـ « انظروا ! هى ذى شحاذة قذرة تجلس تحت

هذه الشجرة المورقة الجميلة .. هلموا .. تعالوا نطردها .. فهى سقيمة قبيحة .. »

ودنا منها ورماها بالأحجار وسخر منها .. نظرت له برعب فى عينيها ولم تبعد ناظريها عنه . دنا منه أبوه بالتبنى وأمره ألا يفعل هذا ، فضرب طفل النجوم الأرض واحمر وجهه غضبًا وقال :

ـ « من أنت كى تسألنى عما أفعل .. من أنت ؟ أنا لست ابنا لك كى أمتثل لأوامرك .. »

قال الحطاب :

ـ « أنت تكلمت بالحق .. لكن ألم أشفق عليك حين رأيتك فى الغابة ؟ »

وحين سمعت المرأة هذه الكلمات أطلقت صرخة وفقدت وعيها ، فاحتملها الحطاب إلى داره .. وحين أفاقت من الإغماءة وضع أمامها لحمًا وشرابًا وطلب منها أن تنعم بالراحة .

لكنها لم تمس الطعام ولا الشراب ، وسألت الحطاب :

ـ « ألم يكن هذا من عشر سنوات حين وجدت هذا الطفل فى الغابة ؟ »

فأجابها الحطاب :

ـ « بلى .. وكان هذا فى الغابة .. »

ـ « ألم تجد علامات معينة معه ؟ ألم يكن حول عنقه قلادة من الكهرمان ؟ ألم يكن ملفوفًا فى عباءة مذهبة طرزت عليها نجوم ؟ »

أجاب الحطاب :

ـ « هذا حق .. كان الأمر كما تقولين .. »

والتقط العباءة والقلادة الكهرمانية من الصندوق وأراهما للمرأة .

فلما رأت هذه الأشياء صرخت وبكت من الفرح :

ـ « إنه ابنى الذى فقدته فى الغابة .. أرسله لى حالاً لأننى بحثت عنه فى كل العالم ولم أجده .. »

لذا خرج الحطاب وزوجته ونادیا طفل النجوم .. وقال الأب :

- « ادخل إلى المنزل ولسوف تجد أمك .. »

جرى الصبى إلى الكوخ مليئاً بالسرور والعجب ، لكنه حين رأى من تنتظره بالداخل ضحك محتقراً وقال :

- « أين هى أمى ؟ أنا لا أرى هنا إلا هذه المرأة المتسولة »

قالت المرأة :

- « بل أنا أمك .. »

صاح طفل النجوم فى غضب :

- « أنت مجنونة .. أنت لست أمى فأنت شحاذة قبيحة تلبسين الأسمال .. اغربى عن وجهى ودعينى لا أرى وجهك القبيح ثانية .. »

صاحت المرأة :

- « أنت ابنى .. لقد خطفك اللصوص منى ثم تركوك لتموت فى الغاب .. لكنى عرفتك حين رأيتك . لقد فتشت

العالم كله بحثاً عنك ، والآن أرجوك أن تأتى معى يا بنى ، فأنا بحاجة إلى حبك .. »

لكن طفل النجوم لم يتحرك .. بل أوصد أبواب قلبه دونها .

فى النهاية قال لها بصوت قاس مرير :

- « لو كنت حقاً أمى لكان خيراً لك لو بقيت بعيداً .. بدلاً من أن تأتى هنا لتجلبى لى العار .. كنت أحسب نفسى ابن نجم فجئت لى كى أعرف أننى ابن شحاذة .. لهذا ابتعدى عنى فلا أريد أن أراك ثانية ..»

صاحت :

- «ولحسرتاه يا بنى !! ألن تقبلنى قبل أن أرحل ؟»

- « نعم لن أقبلك .. فأنت أقبح من أن يستطيع المرء النظر إليك .. من الأسهل لى أن أقبل الثعبان أو الضفدع بدلا منك .. »

لهذا غادرت المرأة البيت وتوارت باكية .. وسر طفل النجوم لأنها رحلت وجرى ليلحق برفاقه . لكنهم حين رأوه سخروا منه وقالوا :

- « أنت قذر كالضفدع وكريه كالثعبان .. أغرب عنا فلن نلعب معك .. »

وطردوه من الحديقة .

قطب طفل النجوم جبينه وقال :

- « ما هذا الذى يقولون لى ؟ سأذهب إلى البئر وأتأمل وجهى ، ولسوف يخبرنى كم أنا جميل .. »

لذا ذهب إلى البئر ونظر فيه .. لكن يا للحسرة ! كان وجهه وجه ضفدع وجسمه كجسد ثعبان .. رمى بنفسه على العشب وبكى . وقال :

- « بالتأكيد هذا أصابنى بسبب خطاياى .. لقد أنكرت أمى وطردتها .. لسوف أبحث عنها فى العالم كله ولن أستريح حتى أجدها .. »

هنا جاءته ابنة الحطاب الصغرى ، ووضعت يدها على كتفه :

- « وما المشكلة لو أنك فقدت حسنك ؟ ابق معنا هنا ولن أسخر منك أبدا .. »

قال لها :

- « كلا .. لكنى قسوت على أمى .. فعوقبت بهذا الشر .. يجب أن أرحل وأبحث فى الأرض حتى أجدها .. وتغفر لى .. »

وجرى إلى الغابة بحثاً عن أمه لكنها لم تكن هناك . ظل يبحث عنها طيلة اليوم ، وحين جاء المساء رقد على فراش من الأوراق . كان وحيداً اللهم إلا من ضفدع جاء إليه وثعبان زحف حوله .

فى الصباح سأل الخلد :

- « أنت تستطيع الزحف تحت الأرض .. قل لى هل أمى هناك ؟ »

قال الخلد :

- « أنت أعميتنى فكيف أعرف ؟ »

سأل الطائر :

- « أنت تستطيع الطيران فوق الأشجار السامقة .. فهل رأيت أمى ؟ »

فأجاب الطائر :

ـ « أنت قصصت جناحى لمتعتك .. فكيف أطير ؟ »

وسأل السنجاب الذى يعيش فى شجرة التنوب :

ـ « أين أمى ؟ »

فأجاب السنجاب :

ـ « أنت قتلت أمى .. أتراك تبحث عن أمك لتقتلها هى الأخرى ؟ »

فبكى طفل النجوم وخفض رأسه وطلب الصفح من مخلوقات الله . ومشى فى الغابة يفتش عن المتسولة . وفى اليوم الثالث خرج من الغابة ونزل إلى السهل .

حين مشى فى القرية سخر منه الأطفال ورموه بالأحجار . ولم يتركه الفلاحون ينام حتى فى حديقة المواشى كى لا يسبب تعفن القمح .. فلا أشفق عليه أحد ولا هو وجد أمه .

ثلاثة أعوام راح فيها يجوب القرى بحثاً عنها ، لكنه لم يقابلها واعتاد الناس أن يسخروا منه .

ثلاثة أعوام جاب فيها العالم .. وفى العالم لم يكن هناك حب ولا رفق .. لكنه كان ذات العالم الذى صنعه لنفسه فى أيام غروره الأولى .

فى المساء بلغ أسوار مدينة محصنة جوار النهر .. ولما كان منهكا متقرح القدمين فقد أرغم على دخولها . لكن الجند على الباب أغلقوه برماحهم وسألوه :

ـ « ماذا تريد هنا ؟ »

أجاب :

ـ « أبحث عن أمى .. وأتوسل لكم أن تسمحوا لى بالمرور فلربما كانت هنا .. »

لكن الجنود سخروا منه ، وقال أحدهم :

ـ « الحق أن أمك لن تسر حين تراك .. لأنك أقبح من ضفدع المستنقع . فلترحل .. أمك لاتعيش فى هذه المدينة .. »

وقال آخر يحمل راية صفراء فى يده :

ـ « من أمك ؟ ولأى سبب تبحث عنها ؟ »

قال الصبى :

ـ « أمى شحاذة مثلى .. وقد قسوت عليها وأتوسل لكم أن تسمحوا لى بالدخول لعلى أفوز بصفحها .. لو كان حقًا أنها تعيش هنا .. »

لكنهم رفضوا ونخسوه برماحهم . وإذ كاد الصبى يرحل ، جاء رجل يلبس درعًا عليه زهور مذهبة ، وسأل الحراس عن كنه هذا الفتى الذى يرغب فى الدخول .

قالوا له :

ـ « إنه شحاذ ابن شحاذة .. وقد طردناه .. »

قال الرجل :

ـ « كلا .. سنبيع هذا الفتى المنفر كعبد ، ولسوف يكون ثمنه كافيًا لشراء زجاجة نبيذ .. »

صاح رجل شرير الملامح كان يمر بهم :

ـ « سأشتريه بهذا الثمن .. »

ودفع الثمن واقتاد طفل النجوم إلى داخل المدينة .

اقتاده الرجل عبر شوارع المدينة حتى بلغ بابا تغطيه شجرة رمان ، ولمس الباب بخاتم من يشب فى يده فانفتح الباب .. هبطا خمس درجات إلى حديقة تملؤها نباتات الأفيون ومرطبانات خضراء بها صلصال محترق . عندها نزع الرجل من عمامته وشاحًا حريريًا غطى به عينى الفتى ، ثم اقتاده أمامه . وحين أزاح الوشاح عن عين الفتي ، وجد طفل النجم نفسه فى جب يضيئه مصباح من قرن حيوان .

وضع العجوز أمامه بعض الخبز العفن وقال :

ـ « كل .. »

ووضع بعض الماء الآسن وقال :

ـ « اشرب .. »

فلما فرغ من الأكل والشرب انصرف الرجل ، ولم ينس أن يغلق السرداب بسلسلة حديدية .

فى الغد جاء الرجل ، وكان من أخبث سحرة ليبيا ، وقد تعلم هذا الفن من واحد كان يعيش فى المقابر المجاورة للنيل جاء له وقطب وقال :

ـ « فى غابة قرب بوابة مدينة (جياورز) هذه توجد ثلاث قطع من الذهب . واحدة من الذهب الأبيض والأخرى من الذهب الأصفر والثالثة من الذهب الأحمر . اليوم تجلب لى قطعة الذهب الأبيض ، ولو لم تجلبها سأضربك مائة جلدة . ارحل الآن وعند الغروب سأنتظرك عند باب الحديقة . أنت عبدى وقد اشتريتك بثمن زجاجة من النبيذ .. »

ثم غطى عينى الصبى بالوشاح واقتاده عبر المنزل وعبر الحديقة .. ثم صعد به الدرجات الخمس وفتح الباب وأطلقه فى الشارع .

ومضى طفل النجوم فى الشارع . وخرج إلى الغابة التى تكلم عنها الساحر . كانت الغابة الآن جميلة مليئة بطيور مغردة وزهور عطرة ، وقد دخلها طفل النجوم مسرورا .

لكن فى كل مكان يمشى فيه كانت أشواك من الأرض تخرج وتحيط به . ولدغته النباتات الشوكية حتى صار فى ألم عظيم . ولم يجد الذهب الأبيض فى أى مكان .. برغم أنه بحث عنه من الصباح حتى الظهيرة .. ومن الظهيرة حتى الغروب . وعند الغروب اتجه للبيت وهو يبكى بحرقة لأنه يعرف أى مصير ينتظره .

لكنه حين بلغ أطراف الغابة سمع من الأحراش صرخة ألم . نسى حزنه وجرى إلى المكان فرأى أرنبًا صغيرًا وقع فى مصيدة نصبها صياد . أشفق عليه طفل النجوم فحرره وقال له :

ـ « أنا نفسى لست سوى عبد لكن بوسعى أن أهبك الحرية .. »

فقال الأرنب :

ـ « أنت منحتنى الحرية فماذا بوسعى أن أعطيك ؟ »

ـ « أنا أبحث عن قطعة من الذهب الأبيض .. لكن لا أجدها .. ولو لم أجلبها لسيدى فلسوف يضربنى .. »



ـ « تعال معى .. ولسوف أقودك إليها فأنا أعرف أين خبئت ولأى غرض .. »

هكذا مضى طفل النجوم مع الأرنب .. و .. فى قلب شجرة بلوط عجوز وجد قطعة الذهب التى كان يبحث عنها . ملأه الفرح وأمسكها وقال الأرنب :

ـ «إن الخدمة التى قدمتها لك قد عادت على بالمنفعة عدة مرات .. والخير الذى أظهرته قد تضاعف مائة مرة .. »

قال الأرنب :

ـ « كلا .. ولكن كما تعاملت معى تعاملت معك .. »

وجرى مبتعدًا بينما عاد طفل النجوم إلى المدينة .

على بوابة المدينة جلس رجل مجذوم على وجهه انسدلت عباءة رمادية .. ومن خلال ثغرة العينين تلمع عيناه كالجمرات . وحين رآه ضرب على سلطانية من الخشب ودق جرسه . وناداه :

ـ « أعطنى بعض المال وإلا مت جوعًا .. لقد طردونى من البلدة وما من أحد عطف على .. »

صاح طفل النجوم :

ـ « ولحسرتاه ! لدى قطعة ذهبية فى حافظتى ولو لم أجلبها لسيدى فسوف يجلدنى . لأننى عبده .. »

لكن المجذوم توسل له حتى شعر الطفل بالشفقة وأعطاه قطعة الذهب الأبيض .

وحين عاد إلى الساحر سأله هذا :

ـ « هل جلبت معك قطعة الذهب الأبيض ؟ »

قال الفتى :

ـ « ليست معى .. »

فضربه الساحر ، ثم قدم له وعاء فارغًا وأمره أن يأكل ، وكوبًا فارغًا وأمره بأن يشرب . ثم ألقى به فى الجب .

وفى الغد جاء الساحر إليه وقال :

ـ « اليوم إن لم تجلب لى قطعة الذهب الأصفر فسوف أضربك ثلاثمائة جلدة .. »

هكذا ذهب طفل النجوم إلى الغابة وقضى اليوم كله يبحث عن قطعة الذهب الأصفر ، لكنه لم يجدها . عند الغروب جلس يبكى حين جاءه الأرنب الصغير الذى أنقذه من الفخ أمس .

قال له الأرنب :

ـ « عم تبحث فى الغابة ؟ وعلام تبكى ؟ »

أجاب طفل النجوم :

ـ « أبحث عن قطعة الذهب الصفراء ، فلو لم أجدها لضربنى سيدى .. »

صاح الأرنب :

ـ « اتبعنى .. »

وجرى بين الأشجار حتى وصل إلى بركة ماء . فى قاع البركة كانت قطعة الذهب الأصفر .

قال طفل النجوم :

ـ « كيف أشكرك ؟ هذه المرة الثانية التى تنقذنى فيها .. »

قال الأرنب :

ـ « كلا .. ولكنك ساعدتنى أولاً .. »

وجرى مختفيًا مسرعًا .

عاد طفل النجوم حاملاً قطعة الذهب فى حافظته ، وهرع إلى المدينة . لكن المجذوم رآه فهرع إليه وركع أمامه وبكى :

ـ « أعطنى بعض المال وإلا مت جوعًا .. »

صاح طفل النجوم :

ـ « لدى قطعة ذهبية فى حافظتى ولو لم أجلبها لسيدى فلسوف يجلدنى ، ولن يعتقنى أبدًا .. »

لكن المجذوم توسل له حتى شعر الطفل بالشفقة وأعطاه قطعة الذهب الأصفر .

وحين عاد إلى الساحر سأله هذا :

ـ « هل جلبت معك قطعة الذهب الأصفر ؟ »

قال الفتى :

ـ « ليست معى .. »

فضربه الساحر ، ثم قيده بالسلاسل . ثم ألقى به فى الجب .

وفى الغد جاء الساحر إليه وقال :

ـ « اليوم إن جلبت لى قطعة الذهب الأحمر فلسوف أعتقك .. لكن إن لم تجلبها لى فلسوف أقتلك .. »

هكذا ذهب طفل النجوم إلى الغابة وقضى اليوم كله يبحث عن قطعة الذهب الأحمر ، لكنه لم يجدها . عند الغروب جلس يبكى حين جاءه الأرنب الصغير الذى أنقذه من الفخ .

قال له الأرنب :

ـ « قطعة الذهب الأحمر التى تبحث عنها فى الكهف خلفك فلا تبك ثانية .. »

قال طفل النجوم :

ـ « كيف أشكرك ؟ هذه هى المرة الثالثة التى تنقذنى فيها .. »

قال الأرنب :

ـ « كلا .. ولكنك ساعدتنى أولاً .. »

وجرى مختفيًا مسرعًا .

ودخل طفل النجوم إلى الكهف وفى ركنه القصى وجد قطعة الذهب الأحمر .

عاد طفل النجوم حاملاً قطعة الذهب فى حافظته ، وهرع إلى المدينة . لكن المجذوم رآه فهرع إليه وركع أمامه وبكى :

ـ « أعطنى بعض المال وإلا مت جوعًا .. »

صاح طفل النجوم :

ـ « إن حاجتك أكبر من حاجتى فخذها .. »

وأعطاه قطعة الذهب الأحمر ، لكن قلبه كان مثقلاً لأنه كان يعرف المصير الأسود الذى ينتظره .

لكن يا للعجب ! ما إن مر عبر بوابة المدينة حتى انحنى له الحراس قائلين :

ـ « ما أجمل سيدنا !! »

واحتشد المواطنون حوله وهم يرددون :

ـ « بالتأكيد ليس من أحد أجمل منه فى العالم كله .. »

بكى طفل النجوم وقال لنفسه :

ـ « إنهم يسخرون منى .. ويستخفون بتعاستى .. »

كان احتشاد الناس كبيرًا حتى إنه ضل الطريق ، وفى النهاية وجد نفسه فى ميدان كبير . فيه قصر ملك .

انفتح باب القصر فظهر كبار الموظفين والرهبان بالمدينة يهرعون ليحيوه ، وفى تواضع قالوا له :

ـ « أنت سيدنا الذى انتظرناه طويلاً .. اين ملكنا .. »

قال لهم طفل النجوم :

ـ « لست بابن ملك .. بل ابن متسولة .. وكيف تقولون إننى جميل وأنا أعرف أن شكلى شيطانى ؟ »

هنا صاح ذلك الرجل الذى كان يلبس درعًا بزهور مذهبة وهو يلوح بدرع :

ـ « كيف يقول سيدى إنه ليس جميلاً ؟ »

نظر الصبى فى الدرع فيا للعجب ! لقد عاد وجهه كما كان واستعاد حسنه .

وانحنى الرهبان وكبار الموظفين وقالوا له :

ـ « تنبأ القدامى بأنه فى هذا اليوم سوف يأتى ذلك الذى سيحكمنا . لهذا فليأخذ سيدنا سيفه وصولجانه وليكن بعدالته ورحمته ملكنا .. »

لكنه قال لهم :

ـ « لكنى لا أستحق .. لقد تخليت عن أمى التى حملتنى .. ولن أستريح حتى أجدها وأعرف أنها

صفحت عنى .. لهذا دعونى .. يجب أن أجوب العالم من جديد ولا أتلكأ هنا برغم أنكم جلبتم لى التاج والصولجان .. »

وأدار وجهه إلى البوابة التى تقود إلى المدينة .. هنا لدهشته وجد وسط الزحام الذى يضغط على الجنود تلك المرأة المتسولة التى هى أمه . وجوارها كان المجذوم ..

خرجت من شفتيه صيحة سرور .. وجرى حتى بلغ أمه فانحنى يلثم الجروح فى قدميها ، ويغسلها بدموعه . مرغ رأسه فى الغبار وبكى كأنما تحطم قلبه وقال لها :

ـ « أماه .. قد أنكرتك فى ساعة غرورى وفخرى .. فاقبلينى فى ساعة هوانى . أماه .. لقد منحتك الكراهية فامنحينى الحب .. أماه .. لقد رفضتك فاقبلى طفلك .. »

لكن المرأة لم تجب بكلمة ، فمد يديه وأمسك بقدمى المجذوم البيضاويتين وقال له :

- « قد منحتك عطفى ثلاثًا .. فاجعل أمى تتكلم معى مرة »

لكن المجذوم لم يرد بكلمة .

عاد يبكى وقال :

- « أماه .. إن حزنى لعظيم .. أعطينى صفحك واتركينى أعدُ للغابة .. »

وضعت المرأة يدها على رأسه وقالت :

- « انهض .. »

ووضع المجذوم يده على رأسه وقال :

- « انهض .. »

ونهض فيا عجب ما رأى .. كانا ملكا وملكة ! وقالت له الملكة :

- « هذا هو أبوك الذى أنقذته .. »

وقال له الملك :

- « تلك هى أمك التى غسلت قدميها بالدموع .. »

وعانقاه وقبلاه .. وأدخلاه إلى القصر وألبساه ثيابًا جميلة . ووضعا التاج على رأسه ، وعلى المدينة المطلة على النهر صار ملكًا وسيدًا .

أظهر الكثير من العدل والرحمة ، ونفى الساحر الشرير ، وأرسل إلى الحطاب وامرأته الهدايا ومنح أولادهما الألقاب ..

لم يقس على طير أو وحش .. لكنه علم الحب والعطاء ..

للفقراء منح المال وللعرايا منح الثياب ..

لكنه لم يعش كثيرًا ، لأن معاناته كانت بالغة القسوة ، وامتحانه كان مريرًا ..

لذا مات بعد ثلاثة أعوام وأتى بعده من حكم البلاد حكمًا جائرًا .

* * *

عيد ميلاد (إنفانتا)(*)

كان هذا عيد ميلاد (إنفانتا) .. كانت فى الثانية عشرة من عمرها والشمس تسطع فى حدائق القصر . وبرغم أنها كانت أميرة إسبانية حقيقية فلم يكن لها إلا عيد ميلاد واحد فى العام مثل أبناء الفقراء . لهذا كان من الضرورى أن يكون يومها عظيمًا بهذه المناسبة .

وقفت زهور التيوليب على أعوادها كأنها هى صف من الجنود وقالت متحدية للورود :

ـ « نحن رائعات الجمال مثلكن الآن .. »

وأينع الرمان وتشققت ثمراته بفعل الشمس كاشفة عن قلوب دامية حمراء ، فيما راحت الفراشات الصفر تحلق من زهرة لأخرى وهى تبعثر الذهب حولها .

(*) عامة يطلق اسم (إنفانتا) على ابنة ملك إسبانيا أو البرتغال ..

وراحت الأميرة الصغيرة تذرع الشرفة جيئة وذهابًا .. وراحت تلعب (الاستغماية) وراء وحول أصص الزهور ، والتماثيل القديمة التى كستها الطحالب .

فى الأيام العادية لم يكن يسمح لها إلا باللعب مع أطفال من طبقتها أى أنها كانت تلعب وحدها .. لكن اليوم استثناء ، وقد سمح الملك لها بأن تطلب مع من تريد من الأطفال ليلعبوا معها . وتوافد الأطفال متأنقين قدر الإمكان ، لكن (إنفانتا) كانت أكثرهم أناقة طبعًا ، ملتزمة (بالموضة) المرهقة لذلك العصر .. كانت عباءتها من الساتان الرمادى ، والتنورة والأكمام الواسعة مطرزة بالفضة . أما الحزام فكان مثقلا باللآلئ .. وكان فى قدميها خفان رقيقان عليهما أزهار وردية ، وفى شعرها الذى بدا كهالة صفراء شاحبة حول رأسها كانت وردة بيضاء كبيرة .

ومن نافذة فى القصر كان الملك الحزين يراقبهم خلفه جلس أخوه (دون بدرو) الذى يكرهه .. وكاتم أسراره قاضى اعترافات (جرانادا) يجلس جواره .

كان الملك أكثر كآبة من المعتاد لأنه إذ راقب ابنته
كان يتذكر الملكة الشابة ـ أمها ـ التى جاءت من البلد
البهيج (فرنسا) ، لتذوى وتضمحل صحتها فى الروعة
الكئيبة للبلاط الإسبانى ، وتموت بعد مولد ابنتها بستة
أشهر .

عظيمًا كان حبه لها إلى حد أنه لم يتحمل أن
يدفنها ويواريها بعيدًا عنه .. لقد حنطها له أحد
أطباء (المور) وكان الثمن هو النجاة بحياته ، بعدما
اتهم بممارسة السحر والهرطقة . ومازال جسدها
يرقد على نعشها المكسو بنسيج مزخرف ، فى كنيسة
الرخام الأسود بالقصر ، منذ أن حملها الرهبان إلى
هناك فى ذلك اليوم العاصف من شهر مارس منذ
اثنتى عشرة سنة .

وفى كل عام يذهب الملك إلى هناك مرتديًا عباءته
السوداء ، والمصباح فى يده ، ليركع جوارها ويقول :

ـ « مى رينا ! مى رينا ! »

وأحيانًا يخرق قواعد الإتيكيت الذى يحكم كل شىء
فى إسبانيا ، فيمسك بيدها الشاحبة المحلاة بالمجوهرات ،
ويحاول بالقبلات أن يوقظ الوجه الشاحب .

اليوم يشعر كأنه يراها ثانية كما رآها أول مرة فى
قلعة (فونتينبلو) منذ خمسة عشر عامًا .. فى ذلك
اليوم خطبا رسميًا فى حضرة ملك فرنسا ، وعاد من
هناك حاملاً معه شعرًا أصفر وذكرى شفتين طفلتين ،
لثمتا يده وهو يركب عربته .

فيما بعد كان الزواج .. وتم الترتيب له بسرعة
فى (بورجو) . والاحتفالات التى تلت ذلك ، ومنها
حرق عشرات المهرطقين الذين كان من بينهم الكثير
من الإنجليز .

بالقطع أحبها بجنون ، واندمج فى حبها إلى
حد أذهله كثيرًا عن حروبه مع الإنجليز على حكم
العالم .. ولم يفطن إلى أن الاحتفالات والمراسم التى
أغرقها فيها إنما أسهمت فى جعل مرضها يزداد
سوءًا .

فلما ماتت لم يمنعه من الانضمام إلى الدير ، إلا خوفه من أن تظل (إنفانتا) تحت رحمة أخيه الشرير والذى قيل إنه المسئول عن موت الملكة بقفازين مسمومين أعطاها إياهما عندما زارت قلعته فى (أراجون) .

وعاش الرجل مع الأحزان ، فلم يسمح لأحد من نبلائه أن يكلمه عن شىء جديد ، وحين كان الإمبراطور يتصل به عارضا عليه الزواج من أرشيدوقة (بوهيميا) الجميلة ابنة أخيه ، كان يقول للسفراء أن يبلغوا سيدهم بأن ملك إسبانيا قد تزوج الأحزان ، وبرغم أن الأحزان عقيمة فإنه يفضلها على الجمال ذاته . وقد كلفته هذه الإجابة مقاطعات هولندا الغنية .

اليوم يستعيد كل مشاهد حياته السابقة وهو يرى (إنفانتا) فى الحديقة وفيها كل ملامح أمها .. حتى العناد المشاكس والفاتن برغم هذا ، وتطوح رأسها لخلف حين تصمم على شىء وثغرها المقوس الجميل ..

كانت الشمس مشرقة قاسية كلما تسخر من أحزانه ، وهكذا حين رفعت (إنفانتا) رأسها إلى أعلى فى المرة التالية وجدت النافذة مغلقة والستائر منسدلة .

الآن جاء وقت المصارعة المزيفة . أرجعت رأسها إلى الخلف وتأبطت ذراع (دون بترو) وتقدمت إلى الحلبة . هناك كان الصبية النبلاء يلبسون كمصارعى الثيران ويقفون فى صف .. وقد رتبوا أنفسهم بحيث تقدم الصفوف أولئك الذين يحملون الأسماء الأطول . وجاء كونت (تييرا نوفا) الصغير وهو صبى وسيم فى الرابعة عشرة من عمره ، انحنى لها وخلع قبعته بكل الرقى والكبرياء المميزين لطبقة (الهيدالجو) التى جاء منها . واقتادها إلى مقعد من العاج يطل على الحلبة . وجلس الأطفال يلعبون دور المشاهدين وهم يطوحون بمراوحهم .

بالطبع كانت مصارعة ثيران رائعة . المصارعون بعضهم على الجياد جميلة السروج يطوحون برماح مزخرفة ، وبعضهم على الأقدام يطوحون بعباءاتهم الحمراء ، والثور نفسه لم يكن أكثر من رجل متنكر يهجم ويقف أحيانا على قدميه الخلفيتين وهو ما لا يحلم به أى ثور حقيقى .

في النهاية استطاع كونت (تيبرا نوفا) أن يرغم الثور على أن يركع على ركبتيه ، وطلب الإذن من (إنفانتا) كي يمنحه ضربة الخلاص . من ثم أولج السيف الخشبي في عنق الحيوان حتى إن الرأس المزيف انفصل ، وظهر وجه السيد (دي لوريان) ابن السفير الفرنسي في باريس .

بعد هذا كان عرض عرائس شديد الإمتاع ، وقد بكى الأطفال وهم يشاهدون التمثيلية ، وحتى السيد (بدرو) نفسه لم يتمالك نفسه من الدهشة لأن عرائس بسيطة من الخشب والشمع كان عليها أن تعاني قدرها بهذا الشكل القاسي .

ثم جاء مشعوذ إفريقي جلب سلة مغطاة بقماش أحمر .. ووضعها في منتصف الحلبة ، وأخذ من عمامته أنبوبا ونفخ فيه .. بعد دقائق خرج ثعبانان منها وارتفعا وراحا يتمايلان مع الموسيقا . لكن الأطفال كانوا أقرب إلى الرعب .. ولم يظهروا السرور إلا حين جعل الساحر شجرة تنمو من الرمال .. وحين

أخذ الساحر مروحة ابنة الماركيز (دي لاتور) وحولها إلى طائر أزرق . بعد هذا جاء بعض الغجر ليمتعوا الموجودين برقصهم وترويضهم للدببة والقردة .. صحيح أنهم أصيبوا بالهلع حين رأوا (دون بدرو) الذي شنق اثنين منهم منذ أسبوع في السوق بتهمة السحر ، لكنهم اطمأنوا حين رأوا (إنفانتا) بعينيها الزرقاوين الصافيتين اللتين لا يمكن أن ترتكبا القسوة .

لكن أكثر الأجزاء إضحاكًا كان رقص القزم ، وهو مخلوق قميء اصطاده اثنان من النبلاء من غابة متاخمة للمدينة . وكان حطابًا فقيرا سره التخلص من هذا الطفل المشوه . وقد راح القزم يرقص بساقيه المقوستين ورأسه الكبير ، حتى إن (إنفانتا) انفجرت في الضحك واضطرت الكاميريا (مربيتها) أن تذكرها بأنه وإن كانت هناك سوابق لأميرة تبكي تأثرًا ، فإنه ليست هناك سوابق لأميرة تضحك كل هذا الضحك من أحد رعاياها ، الذين هم أدنى منها مرتبة بحكم المولد .

كان السرور باديًا عليه وحين كان الأطفال يضحكون كان يضحك بدوره فى سرور . وكان يحيى الأطفال بانحناءات مضحكة وكأنه واحد منهم وليس مجرد شيء مشوه ، جاء ليسخر الآخرون منه .

فتنته (إنفانتا) وبدا عاجزًا عن إبعاد عينه عنها ، وكأنه يرقص لها وحدها .. وقد تذكرت الأميرة ما كانت النساء يفعلنه مع (كافاريللى) الموسيقار الإيطالى العظيم ، الذى أرسله البابا إلى مدريد عسى أن ينجح بموسيقاه فى أن يخرج الملك من أحزانه . لذا مدت يدها فى شعرها والتقطت الوردة البيضاء وألقت بها له فى الحلبة لتغيظ الكامريرا .

تعامل مع الأمر بجدية ولمس الوردة بشفتيه الغليظتين ، وواضعا يده على صدره انحنى أمامها .

قالت لها الكامريرا إن على سموها أن تعود إلى القصر ، لأن الجو حار ، ولأن موعد الوليمة قد حان ، وفيها تورتة حقيقية كبيرة كتب عليها اسم الأميرة

بالسكر . لذا وافقت الأميرة على النهوض وإن اشترطت أن يرقص لها القزم من جديد بعد انتهاء ساعة القيلولة ، وفى أدب شكرت (تيرا نوفا) على لطفه ، ثم اتجهت إلى جناحها .

وتبعها الأطفال بنفس الترتيب الذى دخلوا به .

حين سمع القزم أنه سيرقص ثانية أمام الأميرة وبأمرها الشخصى ، استبد به الفخر لدرجة أنه جرى إلى الحديقة ، وهو يلثم الوردة البيضاء ، محدثًا أغرب الأصوات والحركات التى تنم عن السرور .

بدا على الزهور الضيق والاشمئزاز من هذا المخلوق القبيح ، وقالت شجرة الورد :

ـ « إن وردتى البيضاء التى أعطيتها للأميرة هذا الصباح فى يده .. واضح أنه سرقها ! »

وصاحت :

ـ « لص !! لص !! »

بينما قال الصبار :

- « إن رؤية وجهه القبيح تملؤنى تقززًا .. ولو دنا منى أكثر للدغته بأشواكى .. »

بينما قالت زهور الجرمانيوم :

- « ياله من مخلوق شنيع !! »

واتفقت الزهور كلها على أن القزم بدا مسرورًا متباهيًا أكثر من اللازم ، وكان سيبدو أفضل لو بدا عليه الحزن أو على الأقل الشرود .. بدلاً من أن يرمى بنفسه ويتواثب بهذا الشكل السخيف .

أما الساعة الشمسية المرموقة ، والتى اعتادت أن يرى الوقت فيها أناس مهمون ليسوا أقل من الملك شارل الخامس نفسه ، فقد انتابها الدهشة لدى رؤية القزم إلى حد أنها أضاعت دقيقتين كاملتين ، قبل أن تقول للطاووس الأبيض الجالس فى الشمس إنها تعرف أن الملوك ينجبون ملوكًا ، وأن الحطابين الفقراء ينجبون حطابين فقراء .. وهى ملحوظة وافق عليها الطاووس تمامًا .

لكن الطيور بشكل ما راق لها القزم .. لقد عرفته فى الغابة يرقص كالجن أو ينكمش على نفسه فى شجرة بلوط قديمة يطعم السناجب بندقًا . لم تبال بكونه قبيحًا .. حتى البلبل الذى يغنى فى الليل حتى ينحنى القمر ليسمعه ، ليس رائع المنظر إلى هذا الحد ..

بالإضافة لهذا كان رفيقًا بها .. وفى ذلك الشتاء القاسى الذى صارت فيه الأرض أكثر صلابة من الحديد . وحين كانت الذئاب تجىء إلى أبواب المدينة بحثًا عن طعام ، لم ينس هو الطيور قط ، وكان يرمى لها الفتات من كيس الخبز الأسود الذى يحمله .

السحالى أيضًا كانت مولعة به . وحين تعب من الركض وتمدد على العشب رحن يتواثبن حوله ، وصحن :

- « لايمكن لكل واحد أن يكون جميلاً كالسحلية .. من العسير أن يتوقع المرء هذا .. ليس بهذا القبح بشرط أن يغمض المرء عينيه ولا ينظر إليه .. »

كانت الفلسفة طبيعية لدى السحالى ، ولكم جلست الساعات تفكر حين تمطر السماء ، أو حين لا تجد شيئًا تفعله .

لكن القزم لم يسمع شيئًا من هذه المحادثات . كان يحب الطيور والسحالى ويعتقد أن الزهور أروع شىء فى العالم باستثناء (إنفانتا) طبعًا ، لكنها أعطته وردة بيضاء وأحبته .. ولكم تمنى لو عاد إلى القصر معها ! عندها ما كان ليتركها أبدًا ، ولكان يعلمها كل الحيل الظريفة التى يجيدها . يمكنه أن يجدل أعواد البمبو ليصنع منها مزمارًا ، ويمكنه أن يصنع أقفاصًا صغيرة يحبس بها الجندب . يمكنه أن يحدد نوع كل طائر من صوته .. ويعرف الأثر الذى يتركه كل حيوان على الأرض .. يعرف كل الرقصات .. يعرف أين يبنى الحمام عشه .. وكيف يعنى بالأفراخ الصغيرة التى صيد أبواها ..

لسوف تحبه .. ولسوف تحب الأرانب التى تتواثب ، والقنفذ الذى يكور نفسه على شكل كرة شوك صغيرة .

نعم .. يجب على (إنفانتا) أن تأتى إلى الغابة وتلعب معه .. سوف يتخلى لها عن فراشه الصغير ويقف يحرسها جوار النافذة حتى الفجر .. ليتأكد من أن الماشية ذات القرون لن تؤذيها ، وأن الذئاب الشرسة لن تدنو من الكوخ ، وفى الفجر يدق على مصراع النافذة وسيخرجان ليرقصا معًا طيلة اليوم ، فإذا تعبت سوف يحملها بين ذراعيه .. لأنه قوى جدًا برغم أنه يعرف أنه قصير القامة .

لكن أين هى ؟

سأل الوردة البيضاء فلم تعطه إجابة . بدا القصر كله نائمًا . وحتى فى النوافذ التى لم توصد كانت هناك ستائر سميكة مسدلة . دار فى المكان يبحث عن ثغرة يدخل منها حتى وجد بابًا صغيرًا مفتوحًا . دخل فوجد نفسه فى قاعة فاخرة .. أجمل بكثير من الغابة .. وحتى الأرض كانت مصنوعة من أحجار ملونة متراصة فى شكل هندسى . لم تكن هناك إلا تماثيل رائعة تنظر إليه وتبتسم ابتسامة غامضة .

وفى نهاية القاعة كانت ستارة سوداء مطرزة بالنجوم والشموس .. هل تكون مختفية خلفها ؟

دعه يجرب على كل حال .

لكن لا .. إنها فقط تقود إلى حجرة أخرى أجمل على جدرانها نقوش جميلة تمثل الصيد ، رسمها رسام فلامنكى خلال ستة أعوام . مشى إلى الغرفة التالية بحثًا عنها فلم ير أحدا ، لكن الغرفة لم تكن خالية تمامًا .

كانت الغرفة عرش والعرش ذاته مغطى بالمخمل الأسود الذى طرزت إليه زهور ولآلىء .. وكانت الأرض مغطاة بالسجاجيد التى صنعها المور ، كانت هناك قبعة الكاردينال وعباءته . لكن القزم لم يكن يبالى بشىء وما كان ليتخلى عن ورقة واحدة من زهرته مقابل هذه الكنوز .. كان فقط يرغب فى أن يرى (إنفانتا) ويسألها أن تأتى معه إلى الغابة . وأضاءت ابتسامة عينيه وهو يفكر .. ثم دخل إلى الحجرة التالية .

كانت تلك أكثر الغرف تألقًا وأجملها .. وكانت جدرانها مغطاة بالقماش الدمشقى رسمت عليه طيور وبراعم فضية . وكان الأثاث من الفضة التى حفرت عليها (كيوبيدات) محلقة . والأرض كانت من العقيق اليمانى أخضر اللون وقد بدا كأنما يمتد إلى الأبد .

خيل إليه من حيث وقف أن شكلاً صغيراً يراقبه . ارتجف قلبه وندت صرخة فرح من فيه ودخل دائرة الضوء إذ فعل هذا تحرك الشكل أيضًا ورآه بوضوح .

بحق (إنفانتا) !!

كان هذا وحشًا .. أفظع وحش رآه فى حياته .. لايبدو كالبشر فى حسن خلقتهم ، لكنه أحدب وملتوى الأطراف وله رأس عملاق ولبدة من الشعر الأسود . قطب القزم وجهه فقطب المسخ وجهه كذلك . ضحك فضحك المسخ مثله . رفع يديه إلى جانبيه فرفع المسخ يديه كذلك . تقدم منه فجاء المسخ له ، مقلدًا

إياه فى كل خطوة .. صرخ من السرور وجرى نحوه ومد يديه . عندها مد المسخ يديه ولمس يدى القزم . كانتا باردتين كالثلج .

أصابه الهلع فتراجع من ثم تراجع المسخ كذلك . حاول أن يضغط لكن شيئًا صلبًا باردًا أوقفه . إن وجه المسخ قريب من وجهه ، ومن الواضح أنه يشعر بالذعر . أبعد الشعر عن عينيه فقلده . أظهر الكراهية له ورسم على وجهه أمارات الكراهية ثم تراجع .

ما هذا ؟ فكر للحظة ثم نظر حوله .. كان هذا غريبًا ، لكن يبدو أن كل شىء مزدوج فى هذه الحجرة ..

فى هذه الجدران غير المرئية الشفافة كالماء الصافى .

صورة لصورة .. أريكة لأريكة .. و (فينوس) الفضية التى تقف فى ضوء الشمس المتسرب من النافذة تمد يديها لـ (فينوس) أخرى تماثلها فى الجمال .



أتراه الصدى ؟ لقد جربه مرة فى الوادى ووجد أنه يكرر كلماته كلمة كلمة .. أتراه يخدع العين كما خدع الأذن ؟

هل يصنع عالماً مقلداً يشبه بالضبط العالم الحقيقى ؟

هل ظلال الأشياء لها لون وحياة وحركة ؟ هل هذا ممكن ؟

تناول الوردة البيضاء من صدره ولثمها ، ففعل المسخ الشىء ذاته مع وردة تخصه ، وضمها إلى صدره بنفس التعبير المريع على وجهه .

حين فهم الحقيقة أطلق صيحة يأس وسقط على الأرض باكياً . كان هو المشوه الأحدب القبيح المخيف . كان هو الوحش .. وهو من سخر منه الأطفال والأميرة الصغيرة التى حسبها تحبه .

كانت فقط تسخر من قبحه وتتهكم على أطرافه المقوسة .

لماذا لم يتركوه فى الغابة حيث لا مرايا تخبره كم هو كريه ؟

لماذا لم يقتله أبوه بدلاً من أن يبيعه للعار ؟

انسابت الدموع الساخنة على خديه ومزق الوردة البيضاء إرباً .

تمرغ المسخ على الأرض ونظر له بعينين تقلصتا ألماً .. زحف كى لا يراه وغطى عينيه بيديه .

زحف كحيوان جريح إلى حيث الظل وراح يئن ويبكى .

هنا دخلت (إنفانتا) نفسها المكان من النافذة المفتوحة مع أصدقائها .. وحين رأوا القزم على الأرض يبكى ويضرب الأرض بيديه بشكل غريب مبالغ فيه ، انفجروا فى الضحك ، ووقفوا يراقبونه .

قالت (إنفانتا) :

- « كان رقصه مضحكاً .. لكن تمثيله أكثر إضحاكاً .. إنه كالدمى لكنه بالطبع ليس طبيعياً مثلها .. »

ولوحت بمروحتها الكبيرة وصفقت .

لكن القزم لم يرفع عينيه .. فقط ازدادت دموعه وهنا وهنا ، ثم أطلق فجأة شهقة غريبة ، وأمسك بجنبه . ثم سقط على ظهره وسكنت حركته .

قالت (إنفانتا) بعد صمت :

ـ « هذا مذهل .. لكن الآن عليك أن ترقص لى .. »

صاح الأطفال :

ـ « نعم .. يجب أن تنهض وترقص لأنك بارع فى الرقص كالقرود ، وأكثر إضحاكا .. »

لكن القزم لم يرد :

ضربت (إنفانتا) الأرض بقدمها وصاحت تنادى عمها الذى كان يجول فى الشرفة مع رئيس التشريفات ، يقرءان بعض الأوراق الرسمية القادمة من المكسيك .

قالت له :

ـ « إن قزمى المضحك لايرد .. يجب أن توقظه وتجعله يرقص لى .. »

ابتسم الرجلان ودخلا فى تؤدة ، وانحنى (دون بدرو) وصفع القزم على خده بقفازه المطرز :

ـ « يجب أن ترقص أيها السيد الصغير . إن (إنفانتا) ترغب فى أن تسليها .. »

لكن القزم لم يتحرك .

ـ « فلنستدع أحد الجلادين .. »

وعاد إلى الشرفة لكن رئيس التشريفات بدا مهتمًا . ركع جوار القزم ووضع يده على قلبه . بعد دقائق هز كتفيه ونهض وانحنى لـ (إنفانتا) وقال :

ـ « يا أميرتى الجميلة .. قزمك المضحك لن يرقص ثانية أبدا .. هذا محزن لأنه قبيح جداً إلى حد أنه يمكن أن يجعل الملك يبتسم .. »

سألته ضاحكة :

ـ « ولماذا لن يرقص ثانية ؟ »

قال رئيس التشريفات :

ـ « لأن قلبه تحطم .. »

قطبت (إنفانتا) جبينها وتقلصت شفتاها الورديتان في ازدراء وقالت ..

ـ « في المستقبل لا تحضروا للعب معي إلا من لا قلب لهم .. »

وبكت وركضت إلى الحديقة .

أوسكار وايلد
١٨٨٨

* * *

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

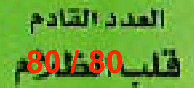
روايات عالمية للجيب

حكايات أوسكار وايلد

44

كتابات أوسكار وايلد هى عالم رقيق من الشاعرية والسحر والسخرية .. عالم لا يمكن وصفه إلا بقراءته . وهذا الكتيب الذى نقدمه لك اليوم يحوى مجموعة من القصص القصيرة لهذا الفنان المبدع ، تتراوح من (الأمير السعيد) التى تذكرك بقصص الأطفال الجميلة ، حتى تصل إلى (إنفانتا) الفاتنة فى قسوتها ..
إنها حكايات أوسكار وايلد .....




العدد القادم
قلب مظلم

